ورقات في البحث والكتابة

عبد الحميد عبد الله الهرامة

منشورات

كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - 1989

الطبعة الأولى

طُبع على نفقة

كلية الدعوة الإسلامية

1309 و.ر - 1989 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴿٥﴾

صدق الله العظيم

lisanarabs.blogspot.com

مقدمة

يكلف الطالب الجامعي بأبحاث علمية وهو يضع خطواته الأولى في مدرجات الجامعة فيقف حائراً أمام ذلك الركام المعرفي المتنوع الذي يقابله في المكتبة، ولا يدري من أين يبدأ، ولا إلى أين يسير. فإذا تمكن من التعرف على بعض المصادر المساعدة بمعاونة أستاذه أو بعد جهد شخصي مضنٍ بقيت أمامه صعوبة بالغة في تركيب ذلك الزخم المعرفي المتحصَل من تلك المصادر، فهل ينقله حرفياً إلى بحثه؟ أو ينقله بالمعنى؟ أو يزاوج بين هذا وذاك؟ ثم ماذا يأخذ وماذا يترك من الأفكار المتشابهة؟؟. وكيف يرتبها في نظام كتابي موفق؟

إن الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها هي الداعي الحقيقي لاعتماد مادتي مناهج البحث والكتابة العلمية في الجامعات الحديثة، غير أن التركيز كان في الماضي مقتصراً ـ تقريباً ـ على طلاب الدراسة العليا في تناول هذه الموضوعات، باعتبار. أنهم أولى بتعلمها، وأن طالب ما قبل التخرج أولى بتعلم الحقائق منه، بتعلم الطرائق ولذا فقلَّ أن تجد كتاباً مؤلفاً لهذا النوع الأخير من الطلاب، موفياً بحاجاتهم، ومعالجاً لمشاكلهم في هذا الميدان.

وفي هذه الورقات محاولة متواضعة لاستيفاء ذلك النقص في تيسير بالغ، وإيجاز شديد، معتمدة في توسيعها وتفسير غوامضها، وتفصيل مجملاتها على أستاذ المادة البصير، وبما يقدمه من دروس عملية وأمثلة تطبيقية تعين الطالب في إدراك ما قصّرت عنه الدراسة النظرية.

أسأل الله أن ينفع بها قارئها فهو ولي التوفيق والسداد.

البحث العلمي*

يُعَرَّف البحث العلمي بأنه جهد علمي منظم يقصد به الكشف عن معلومات جديدة تسهم في تطوير المعارف الانسانيـة وتطوير آفاقها.

ويشتمل هذا التعريف على نقطتين مهمتين تحتاجـان إلى مزيـد من التوضيح والبيان، أولاهما: ـ أن التنظيم يعني السير في البحث وفق منهج أو مناهج علمية سليمة وبتحديد وتخطيط لموضوع البحث، وتحليل وتصنيفٍ لمحتوياته.

وثانيهما: أن الكشف عن الجديد في مضمار العلم لا يعني أن يكون اختراعاً من ابتكارات الباحث التي لم يسبق لأحد أن تطرق إلى أيٍّ من جوانبها، بل يمكن أن يكون العمل العلمي تنظيماً لمادة مبعثرة، أو تصحيحاً لرأي خاطىء، وربما كان مثل هذا الجهد أكثر جدوى من توافه المستحدثات.

ولعله من المناسب ونحن نتحدث عن البحث العلمي أن نشيد بجهود علمائنا المسلمين في هذا المجال، وأن نذكر لهم بالتقدير والاعتزاز تنبههم لأدق قضاياه بصورة تجعل تراثهم محل إعجاب النقاد في كل عصر.

فهم قد اهتموا بمقاصد التأليف التي لا يؤلف عالم عاقل إلاَّ في أحدها،

(*) نشر جانب من هذا الفصل في مجلة كلية الدعوة/ العدد 3.

وفي ذلـك يقـول ابن حـزم «وهي إمـا شيءٌ لم يسبق إليـه يخـترعــه، أو شيءٌ نـاقص يتمه، أو شيءٌ مستغلق يشرحه أو شيءٌ طويل يختصره دون أن يخل بشيءٍ من معانيه، أو شيءٌ متفـرق يجمعه، أو شيءٌ مختلط يرتبه أو شيءٌ أخطـأ فيه مؤلفه يصلحه»[1].

ويبدو من هذا التقسيم أنه جعل تفصيل المجمل وتعيين المبهم ضمن شرح المستغلق، كما يمكن أن نضيف إلى هذه المقاصد الترجمة باعتبارها مقصداً جديراً بالاهتمام والعناية.

وشدد كثير من علمائنا على الأمانة العلمية، واعتبروا أيّ قول لا يسند إلى قائله خالياً من البركة[2]، بل جعلوا ذلك شرطاً في مؤلفاتهم كما يقول القرطبي «وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف إلى قائله»[3] ويتأكد ذلك إذا كان الكتاب علمياً موجهاً إلى جماعة العلماء كما يتأكد في علمي الفقه والحديث وما يتعلق بهما.

وعرفوا الموضوعية، واستخدموا وسائلها من قياس واستقصاء، واعتبروا الاستقراء الناقص سبيلها الأمثل؛ لأن «إثبات ما لا يدخل تحت الحصر بطريق النقل محال»[4] وجعلوا مقـدمات كتبهم مخصصـة لمقاصـدهم من العمل، وخطوات سيرهم فيه، كما في هذا المثال: «وقبل الشروع في إيراد ما قصدت إليه... فلا بدَّ من ذكر مقدّمة تُطْلِعُ على وجه العمل الذي اعتمدته، وترشد إلى المسلك الذي فيه سلكته»[5].

---

(1) رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس 176/2، وانظر شبيهاً من هذا في المقدمة لابن خلدون ص 1026. وقواعد التحديث للقاسمي طـ 1 ص 38.

(2) قواعد التحديث ص 40.

(3) الجامع لأحكام القرآن، لابن عبد الله الأنصاري القرطبي 2/1.

(4) مناهج العلماء المسلمين ص 113 وص 115.

(5) لمع الأدلة لابن الأنباري ص 98.

(6) الذيل والتكملة للمراكشي، تحقيق محمد بن شريفة 6/1.

واتخذوا خطة وحدوداً لمؤلفاتهم لم يتجاوزوها غالباً، وأسموها بالشروط تارة وبالحدود الجامعة المانعة تارة أخرى، فإذا عنَّ لهم الاستطراد أو الاعتراض بأمر خارج عن مباحثهم نبهوا إلى ذلك، واعتذروا بما يُنبىءُ عن تيقظهم لذلك الخروج، وعملوا على تفسير الأسباب الداعية إليه، كالتخفيف من سأم القارىء والارتباط بين مادة الاعتراض وما كان الكاتب بصدده. وقد ينبهون على مزالق الاستطراد قبل وقوعه كقول بعضهم «ولولا أن كل معنى معترض يزيح سهمي عن ثغرة الغرض المقصود في هذا الكتاب لأوردن في هذا الباب... الخ»[1].

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 15/1.

منهجية البحث العلمي

لسنا هنا بصدد التفاصيل الدقيقة لمناهج البحث العلمي، فمجال ذلك في غير هذه الأوراق المختصرة، غير أن ذلك لا يعفينا من ذكر ملامح أبرز المناهج المستخدمة في البحث العلمي، وإحالة المستزيد على مراجع وافية تشبع حاجته في هذا الخصوص.

ونشير بداية إلى أن للعلماء المسلمين إسهامهم أيضاً في منهجية البحث العلمي، ذلك الإسهام الذي حظى باهتمام بعض الأساتذة المتخصصين فتتبعوا مظاهره وسجلوا أسسه في دراسات قيمة منها.

1 - منهج البحث العلمي عند العرب، لجلال محمد موسى: بيروت.

2 - مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، لروزنتاك. ترجمة أنيس فريحة: بيروت. والدار العربية للكتاب طرابلس 1983.

3 - مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي النشار: القاهرة.

4 - منهج البحث التاريخي عند المسلمين، د. عثمان موافي: الاسكندرية.

5 - منهج البحث الأدبي عند العرب، أحمد جاسم نجدى: بغداد 1976.

غير أن قيم وأسس العلماء المسلمين في مناهجهم العلمية ماتزال في

حاجة إلى المزيد من الكشف والتوضيح، وفيها ستبدو للدارس نظرات في غاية الأهمية والنفاسة.

مناهج البحث: -

اختار من تعريفات المنهج أنه «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين»[1].

أما أشهر المناهج المتصلة بالدراسات الإنسانية فهو المنهج الوثـائقي والمنهج الاستقرائي والتحليلي والوصفي والاستنباطي. فالمنهج الوثائقي هو ذلك الذي يُعتمد على الوثائق والآثار التي تعود إلى الماضي باعتبارها مادة أولية يقوم البحث على أساسها ويتوصل من خلالها إلى نتائجه النهائية.

ويعمل الباحث وفق المنهج الوثائقي أو التاريخي على تتبع مراحل معينة تبلغ به إلى الحقائق التاريخية، ويُعنى خلال هذه المراحل بجمع الوثائق أو المخطوطات أو الآثار ثم يتحرى في إثبات صحتها وصحة نسبتها إلى مؤلفيها أو صانعيها، وتحديد زمان ومكان تأليفها أو صناعتها. وتوفر كتب المناهج التاريخية تفاصيل كثيرةً حول نقد هذه الآثار داخلياً وخارجياً، إيجابياً وسلبياً، ويمكن أن يلجأ إليها المستزيد لتعطيه الصورة كاملة[2].

ويقوم المنهج الاستقرائي على دراسة أفراد الظاهرة دراسـة كلية أو جزئية. وتسمى الدراسة الشـاملة لأفراد الـظاهرة بـالاستقراء التـام، أما الاستقراء الناقص فهو دراسة عينات محدودة للوصول إلى حكم عام ينطبق عليها وعلى غيرها من أفراد الظاهرة.

---

(1) انظر مقدمة في المنهج ص 3 ومنهج البحث في العلوم الإسلامية ص 43 ومنهج البحث الأدبي لعلي جواد طاهر ص 15 وأصول البحث العلمي ص 33 ومناهج البحث العلمي لعبد اللطيف العبد ص 7 ومناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ص 4.

(2) من مراجع البحث الوثائقي والاستقرائي.

والحق أن الاستقراء التام أقرب إلى الإحصاء العددي المحض منه إلى التحليل والبحث، ولذا يمكن أن يكون عاملاً مساعداً أو برهاناً قاطعاً من البراهين الواردة في ثنايا البحث أما الاستقراء الناقص فهو الأكثر استعمالاً والأجدر باهتمام الباحثين.

ويعتمد السالكون لهذا المنهج على ملاحظة العينات ووضع الفروض لها وتحليل تلك الفروض واختبارها حتى يتم الوصول إلى الفرض الصحيح. وفي مرحلة أخيرة يتثبت الباحث من صحة فرضه المنتخب بالطرق المعروفة في هذا المنهج.

ويقصد بالمنهج التحليلي عزل عناصر الشيء الواحد بعضها عن بعض حتى يمكن إدراكه بوضوح ويتم الانتقال فيه من مرحلة التصور الكلي إلى مرحلة إدراك الجزئيات[1].

تدرس تلك الجزئيات لمعرفة مضامينها وخصائصها والصلة الرابطة بينها وبين سائر الجزئيات الأخرى، ثم تبدأ مرحلة أخرى هي مرحلة التأليف بين هذه الجزئيات، أو ما يعرف بعملية التركيب.

أما المنهج الوصفي، فيتضمن المسح ودراسة الحالة وتحليل الوظائف والمناشط والبحث المكتبي، ويعتمد هذا المنهج على جمع المعلومات والحقائق ويعمل على دراستها دراسة وصفية تقوم على المقارنة والتحليل والتصنيف والتفسير بغية الوصول إلى نتائج وأحكام عامة[2].

ويقصد بالمنهج الاستنباطي «انتقال الذهن من قضية أو عدة قضايا مسلم بها إلى قضية أو قضايا أخرى هي النتيجة؛ وفق قواعد المنطق، ودون التجاء إلى التجربة»[3] وينقسم إلى:

---

(1) (2) انظر أصول البحث العلمي ومناهجه د. أحمد بدر ص 222.
(3) منهج البحث في العلوم الإسلامية د. محمد الدسوقي ص 101.

1 - بديهيات، وهي القضايا البينة بنفسها والصادقة بالضرورة، مثل أن الكل أكبر من جزئه.

2 - مسلمات، وهي القضايا غير المتناقضة وغير المحتاجة إلى دليل مثل قولنا: لا يمكن رسم أكثر من مستقيم بين نقطتين، أو لا يتقاطع المستقيمان إلا في نقطة واحدة.

ويتضح الفرق بين البديهيات والمسلمات في أن البديهيات صادقة بالضرورة العقلية، أما المسلمات فأقل يقينية منها وإن كنا نسلم جدلاً بصدقها[1].

3 - **التعريفات**: وهي الحدود الجامعة لصفات المعرَّف المانعة لغيرها من الدخول في تعريفه.

وقد تناول هذه المناهج بالدرس والتحليل والأمثلة طائفة من الأساتذة والنقاد العرب والأجانب الذين سنحيل المستزيد فيما يلي إلى بعض أعمالهم العربية أو المعربة:

(أ) مصادر عامة في مناهج البحث: -

- المنطق الحديث ومناهج البحث. د. محمود قاسم، دار المعارف: القاهرة.
- مناهج البحث العلمي. د. عبد الرحمن بدوي: الكويت.
- مناهج البحث العلمي. د. عبد اللطيف محمد العبد. ط مكتبة النهضة المصرية.
- مقدمة في المنهج. د. عائشة عبد الرحمن. معهد الدراسات العربية: القاهرة.

---

(1) المنطق الحديث ومناهج البحث ص 335 ومناهج البحث ص 337 ومناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي ومنهج البحث في العلوم الإسلامية للدكتور الدسوقي 102.

- تقييد العلم للخطيب البغدادي، تحقيق د. يوسف العش.
- أصول البحث العلمي ومناهجه، د. أحمد بدر: الكويت.
- أسس المنطق والمنهج العلمي. د. محمد فتحي الشنيطي: بيروت.
- منهج البحوث العلمية، ثريا ملحس: بيروت.
- التعريف بآداب التأليف للسيوطي، تحقيق عبد الصبور مرزوق: القاهرة.
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، لابن جماعة، حيدر أباد 1253 هـ.

(ب) مصادر خاصة: -

- منهج البحث في العلوم الإسلامية. د. محمد الدسوقي دار الأوزاعي: بيروت.
- البحث الأدبي، طرقه ومناهجه، د. شوقي ضيف دار المعارف: القاهرة.
- منهج البحث الأدبي د. علي جواد الطاهر: بيروت.
- مناهج الدراسة الأدبية د. شكري فيصل: بيروت.
- منهج البحث التاريخي د. حسن عثمان. دار المعارف: القاهرة.
- مصطلح التاريخ. أسد رستم. المكتبة العصرية: بيروت.
- مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان. دار الثقافة: الدار البيضاء.
- مناهج البحث الاجتماعي، د. عمر التومي الشيباني، طرابلس.
- المنطق ومناهج البحث في العلوم الطبيعية. د. علي عبد المعطي محمد: الاسكندرية.
- منهج البحث الفلسفي، محمد زيدان.

- المنهج العلمي وروح النقد، ميشال آلار. بيروت.
- المنهج العلمي في دراسة المجتمع، حامد عمار، معهد الدراسات العربية العالية: القاهرة.
- عقم المنهج التاريخي، كارل بوبر، ترجمة عبد الحميد صبرة. الاسكندرية.

صفات الباحث

أكد علماؤنا القدامى على أربع صفات فيمن يؤخذ عنه العلم يمكن أن نصدر بها هذا الموضوع وهي: ـ العقل والحيدة والصدق والاطلاع العلمي الواسع، وفي ذلك يقول الإمام مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على أحاديث رسول الله ﷺ ولا يؤخذ من شيخ له فضل صلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به»[1] وزاد بعضهم صفات التقوى والاتقان والأمانة[2] والذكاء والعدالة والفضيلة[3].

ولا تختلف الصفات التي وضعها العلماء المعاصرون كثيراً عن الصفات التي وضعها علماؤنا المسلمون، فهي كما سنرى تدور في فلكها أو تشابهها ومن ذلك: ـ

1 - القدرة على البحث والإبداع، ولهذه القدرة صلة لسعة الاطلاع وسعة الخيال، ولها جانب فطري وجانب مكتسب مصقول.

إن جمع المادة العلمية وتنظيمها لا يكفي لتكوين بحث علمي جيد، وإنما

(1) ترتيب المدارك 123/1.

(2) انظر الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لابن عبد البر ص 16.

(3) انظر فصل المقال لابن رشد ص 28 وانظر مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص 121.

المدار في ذلك على التحليل والتفسير والاستنباط والتمثيل والصياغة وهي إمكانيات تحتاج إلى قدرة خاصة على البحث والإبداع. ويستتبع ذلك أن يكون الباحث ذا عقل واعٍ واسع الأفق منظم ليستطيع التصرف بحكمة أمام الركام المعرفي الذي جمعه في مرحلة البحث السابقة.

2 - **سعة الاطلاع**: هي صفة ضرورية للباحث، بها يجدد معلوماته ويعمقها، وبها يطور نفسه ويرى وجوه الاختلاف في نظرات المؤلفين السابقين في القضية المثارة، ومن خلالها يكون وجهة نظره المستقلة والناضجة.

وإذا كان الاطلاع ضرورياً على مختلف ضروب المعرفة فإنه يتأكد في ناحيتين ناحية اكتساب المهارات الفكرية والتجريبية اللازمة للبحث[1]، وناحية المعارف التخصصية التي تتصل بموضوعه.

3 - **المثابرة والصبر**: إن البحث رحلة عناءٍ فكري تحتاج من وقت الباحث وجهده وأعصابه الكثير، فإذا لم يتحل بالصبر والمثابرة والتصميم على بلوغ الأهداف شعر بالكلل والسأمة وضعفت همته عن مواصلة ذلك العمل.

4 - **عمق التفكير والقدرة على النقد**: أما عمق التفكير فهو صفة أصيلة في الباحث لها جانب فطري يتمثل في الذكاء والفطنة، وجانب مكتسب يتمثل في تكوين العقل الناقد بالممارسة والدراسة، ومعرفة أخطاء وانحرافات التفكير ومحاولة تجنبها.

ولا بد أن يكون الباحث واسع الصدر لنقد الآخرين مستزيداً من آرائهم إذ في ذلك يزيد من قدرته على توسيع مداركه ونظرته لعيوبه ونواحي قصوره.

---

(1) انظر «العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث»، لجون ديكنسون ص 103 و 113 وقد خصص من العلوم التي ينبغي للباحث أن يطلع عليها: العلوم والرياضيات والمنطق والإحصاء وتاريخ وفلسفة العلوم بالإضافة إلى صياغة الأفكار ومعالجة البيانات وفهم مدلولاتها.

وتتطلب القدرة على النقد درساً للأمور واستقراء لجوانبها المختلفة ووجوهها المتباينة حتى يستقر الباحث على حكم ثابت وصحيح منطلق من غربال النقد ومعاييره المنطقية لا من فكرة سابقة أو من هوى متبع.

5 - **القدرة على التعبير**: قد يكون الإنسان كثير الاطلاع عميق التفكير متوفراً على كثير من الصفات الخلقية والعلمية ولكنه غير قادر على التعبير عن أفكاره بطلاقة وانسجام، وذلك قصور لا يغتفر في ميدان البحث العلمي النظري.

فالقدرة على التعبير في قوة وجمال ووضوح هي وسيلة الباحث في عرض أفكاره على الآخرين، وهي السبيل إلى تتبع المعاني التي يتطلبها الموضوع دون تهيب من تعذر وجود القوالب اللغوية التي يضع الكاتب فيها تلك المعاني مهما كانت شفافيتها ودقتها.

6 - **الأمانة العلمية**: وهي صفة خلقية لا بد من توفرها في شخصية الباحث يقتضيها عمله الجليل الذي أتاح له أن يكون أحد الذين تولوا حمل الحقائق العلمية والمعارف الإنسانية عبر الأجيال، ومن الوفاء لهذه المهمة الشريفة أن يبتعد عن الانتحال والكذب والنفاق، وإلاَّ يسيء إلى النصوص المنقولة بتحريفها أو بترها بتراً مخلاً أو نسبتها لغير أصحابها، أو ما إلى ذلك من نواحي الخيانة العلمية.

7 - **التواضع**: وهو فضيلة أخلاقية كريمة يحسن أن يتحلى بها الإنسان في حياته بصفة عامة، غير أنها تتأكد في حق الباحث العلمي لما تنطوي عليه من شعور بالآخرين وأعمالهم في حقل المعرفة، وهو اعتراف يضعف من طبيعة الغرور والادعاء في نفس الكاتب، ومن ثم يعطيه القوة على الإنصاف والاعتراف بفضل السابقين، ويدفعه للعمل بصمت وهدوء بعيداً عن حب الذات والظهور والشهرة.

8 - **الموضوعية والتجرد من الهوى**: إن الحيدة العلمية صفة جديرة بأن تأخذ الصدارة بين الصفات الخلقية في شخصية الباحث، وتعني أن يعرض الكاتب. آراءه ويناقشها خارج دائرة الانتماءات المختلفة التي يتبناها فتكون مناقشته أو رفضه وقبوله للأمور مبنياً على أسس منطقية ومقدمات عقلية لا مجال فيها للتحيز والهوى والميول الذاتية.

وتتطلب هذه الصفات الخلقية الثلاث الماضية أن تتوفر للباحث خصلتان أخريان هما الشجاعة الأدبية والإخلاص في العمل، الشجاعة في مواجهة الأهواء الشخصية للباحث أو للآخرين، والإخلاص في أداء رسالته العلمية على أتم الوجوه.

أغراض التأليف

تقدم في مناقشة موضوع البحث العلمي نص لابن حزم يفصل مقاصد التأليف وهو قوله: «التآليف المستحقة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلاَّ في أحدها. . . هي:

1 - إما شيءٌ لم يُسبق إليه يخترعه.

2 - أو شيءٌ ناقص يتمه.

3 - أو شيءٌ مستغلق يشرحه.

4 - أو شيءٌ طويل يختصره دون أن يخل بشيءٍ من معانيه.

5 - أو شيءٌ متفرق يجمعه.

6 - أو شيءٌ مختلط يرتبه.

7 - أو شيءٌ أخطأ فيه مؤلفه يصلحه»(1).

وقد زاد غيره تفصيل المجمل وتعيين المبهم، ولعل ابن حزم جعلهما ضمن شرح المستغلق، ثم بقيت مقاصد التأليف لدى الباحثين المعاصرين تدور في فلك هذه المقاصد أو تزيد عنها قليلاً.

---

(1) رسائل ابن حزم 186/2 وانظر تقريب المنطق له ص 10 ومقدمة ابن خلدون ص 1026.

ويمكن أن نضيف إلى هذه الأغراض الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى، وتحقيق المخطوطات والوثائق التي يهدف الباحث فيها إلى التوثيق والشرح، والضبط والتحسين، والمقارنة بين الأصول، بالإضافة إلى التعليقات والتخريجات والإحالات إلى المصادر، وهي لذلك لا تنحصر تحت غرض واحد من الأغراض السابقة.

▪ المكتبة ▪

ميدان الباحث هو مكتبته وتجاربه، وبقدر معرفته لميدان عمله يمكنه أن ييسر على نفسه من العقبات. ويوفر لها من الوقت.

ومن أوليات التعامل مع المكتبة أن يتعرف الباحث على نظام تصنيفها وطرق الوصول إلى مصادره من خلال نظام الفهرسة المتبع فيها، ولكن لا يكفي أن يتعلم النظم، إذ لا بد من التدريب على تطبيق هذه النظم عملياً لمدة كافية لاكتساب مهارة التعامل مع المكتبة.

هناك نظامان مشهوران في فهرسة الكتب الحديثة أحدهما نظام ديوي العشري والآخر نظام مكتبة الكونجرس، ونظراً لأن الأول أكثر شيوعاً ءسوف يعرض باختصار في النقاط التالية: ـ

قسم جون ديوي المعرفة الإنسانية إلى العناوين التالية وأعطاها الأرقام المجاورة لها:

المعارف العامة	099 - 000
الفلسفة	199 - 100
الديانات	299 - 200
اللغات	499 - 400

العلوم البحتة	599 - 500
العلوم التطبيقية	699 - 600
الفنون	799 - 700
الآداب	899 - 800
التاريخ والجغرافيا	999 - 900

ثم قسم كل عنوان من العناوين السابقة إلى عشرة أقسام داخلية تتناول موضوعات عامة داخل العنوان الأكبر ثم فرع كل قسم منها إلى عشرة فروع لتناول تفاصيل معرفية أكثر دقة من العموميات السابقة، بحيث كان في كل عنوان من العناوين العشرة الماضية ألف فرع تفصيلي تغطي جميع موضوعاته المعرفية، ويمكن أن تضاف أرقام عشرية لتجزئة فروع الموضوع الواحد[1].

وأياً كان نظام التصنيف فإن المكتبة تحتوي عادة على كتب، ومراجع عامة كالموسوعات ودوائر المعارف، ودوريات، ومخطوطات ووثائق كما تحتوي المكتبات المتكاملة على آلات تصوير وأجهزة لطبع الميكروفلم وقراءته وأماكن لحفظه، بالإضافة إلى طائفة من الأجهزة الحديثة الأخرى.

ولكل هذه المعارف فهارس تدل على أماكنها في الأرفف أو الخزائن، وهي فهارس مرتبة هجائياً، ومخزنة في حافظة بطاقات الفهرسة، أو في برنامج العقل الآلي إذا كانت المكتبة تستخدمه في تعاملها مع القراء.

ولكل كتاب في المكتبة ثلاث بطاقات: ـ بطاقة تحمل عنوانه، وثانية تحمل اسم كاتبه، وثالثة تحمل موضوعه، وتشترك جميعاً في رقم واحد يقود إلى موضوع الكتاب في المكتبة.

وبرغم أهمية هذا الجانب فإن العاملين في المكتبة قد ييسرون للباحث

---

(1) لمزيد من التفاصيل راجع ما كتبه الأستاذ محمد جرناز في مجلة الناشر العربي العدد الرابع سنة 1985 ص 50 - 55. وما كتبه محمود الأخرس عن التصنيف وأنظمته بالمجلة العربية للمعلومات ج/2/ ع 1981/2 ص 63.

مثل هذه الخدمات، ويعرفونه عليها، ولكن يبقى بعد ذلك جانب لا يمكنه أن يوكله إلى غيره، أو أن يتجاهل قيمة معرفته الشخصية به، وذلك هو كيفية التعرف على المفاتيح الخاصة بالمواد المتعلقة ببحثه.

المصادر والمراجع

تتصل المصادر بموضوع البحث مباشرة، فهي أصوله ووثائقه مخطوطةً كانت أو مطبوعة، وهي بالتالي مادة البحث المقصودة أساساً بالدراسة والتحليل والتفسير.

أما المراجع فقد قسمها بعض الباحثين إلى مراجع عامة وخاصة، فالأُولى تعطي فكرة عامة عن الموضوع وما حوله، وتحيل إلى مراجع أخرى أكثر تحديداً وأقرب إلى موضوع الدراسة، فضلاً عن أنها تفيده بما كتبه السابقون حول موضوعه وما يتعلق به من ملاحظات وآراء[1].

ويضاف إلى ذلك أن المراجع تشمل كل ما يسهم في تفسير وتحليل ودراسة المصادر الأصلية مثل الكتب التي تُعرِّف بأعلام البحث أو تشرح ألفاظه، أو تضيءُ غوامضه بالتوضيح أو التأييد أو المخالفة أو التمثيل أو البرهنة، وهو ما يعني أن الفرق بين المصادر والمراجع لا صلة له بالقدم والحداثة ولا بحالة الكتابة مخطوطة كانت أو مطبوعة، وإنما المدار على صلة المادة العلمية بالبحث المباشرة أو غير المباشرة.

ومثالاً على ذلك فإن الدراس لشعر شاعر ما له أن يعتبر كل المؤلفات التي

---

(1) منهج البحث التاريخي، حسن عثمان ص 67.

احتوت على شعره مصادر لبحثه مهما كانت طبيعته وحالة كتابتها أو وسيلة نشرها. تستوي في ذلك المخطوطات والكتب والدوريات، والرواية الشفهية.

على أن المصادر تنقسم داخلياً إلى مصادر أولية وأخرى ثانوية، ويكون ذلك بحسب صحة الوثائق وسلامتها وقربها من عصر المادة المدروسة. فإذا اشترك مصدران في احتوائهما على شعر الشاعر في المثال المتقدم فإن قيمة كل منهما تضعه في المرتبة التي يتبوأها، وقيمته تُعرف بعد دراسته دراسةً نقدية دقيقة تتناول إثبات صحة النص وخطه وأوراقه ومؤلفه وزمن ومكان تأليفه ومقارنة مع المصدر الآخر لبيان الأفضلية وتحديد الأولوية[1].

وفي الصفحات التالية عرض لأهم المصادر والمراجع ومفاتيح المعارف التي يجب أن يلم بها وبأضرابها كل باحث في ميدان العلوم الإنسانية والثقافة العربية الإسلامية على وجه الخصوص.

---

(1) المصدر السابق ص 83.

مفاتيح المعارف

تقابل الباحث في العلوم الإنسانية معضلات تحتاج إلى مفاتيح معينة للإجابة عنها بأسرع وقت ممكن دون أن تعيقه عن مهمته البحثية.

فما المفاتيح التي تدلنا على أعلام لا نعرف غير أسماء شهرتهم؟ وكيف نصل إلى معلومات حول كتب مخطوطة أو مطبوعة لا نملك غير عناوينها؟ وهل باستطاعتنا أن نتعرف بسهولة على موقع آية في الكتاب الكريم؟ وكيف نخرِّج حديثاً لا نحفظ غير نصه أو بعض نصه؟ وما وسائلنا لمعرفة قائل بيت من الشعر، أو مصدر أحد الأمثال؟ وكيف يسعنا أن نطلع على إحدى المعارف العامة أو المصطلحات من أقرب الطرق وأيسرها؟

مثل هذه الأسئلة لا يمكن للباحث أن يوكل الإجابة عنها إلى غيره: لأنها تقع في الصميم من عمله العلمي، وهذا ما تحاول الصفحات التالية أن تضعه أمام القارىء في عرض مكثف ومختصر:

— 1 —

ـ مفاتيح الأعلام: ـ

تَحتـظ المكتبة العربية بكتب التراجم العامة والخاصة، ومن النوع الأول ما يغطي فترة طويلة، ومنها ما يتناول فئة خاصة من الناس أو فترة خاصة من

الزمن، وفي الأمثلة التالية نماذج من كتب الأعلام المشهورة في المكتبة العربية، وهي مقسمة على النحو التالي: -

أولاً - كتب المشاهير العامة: -

ولا تتقيد هذه الكتب بفترة زمنية معينة، ولا بفئة معينة من الأعلام، ومن أمثلتها: -

1 - وفيات الأعيان لابن خلكان.

2 - الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي.

3 - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.

4 - الأعلام لخير الدين الزركلي.

ثانياً - أعلام القرن الواحد: -

وفيها يتولى المؤلف ترجمة أعلام قرنه أو القرن السابق له ومنها: -

1 - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

2 - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي.

3 - الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزي.

ثالثاً - أعلام البلدان ومنها: -

1 - الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام لعباس المراكشي.

2 - أعلام العراق لمحمد بهجة الأثري.

3 - أعلام ليبيا للطاهر الزاوي.

4 - معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض.

5 - أدباء مالقة لابن عسكر.

6- قضاة قرطبة وعلماء أفريقية للخشني.

7- تاريخ علماء بغداد للسلامي.

8- تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس لابن الفرضي.

رابعاً - الفئات الخاصة: -

وهي كتب تعني بتراجم الأعلام ذوي الصفات أو التخصصات المتشابهة، ومنها: -

1- كتب الطبقات مثل: - طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي، طبقات الشعراء لابن المعتز ولابن سلام، وطبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي النحوي، وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، طبقات الأدباء المسمى بنزهة الألبا للأنباري وطبقات الحفاظ للسيوطي، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وطبقات الحنفية لابن كمال باشا، وطبقات الصوفية للسلمي وطبقات الخواص من أهل الصدق والخلاص لأحمد الشرجي الزبيدي.

2- ترتيب المدارك للقاضي عياض وهو في أعلام مذهب الإمام مالك وذيله الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المدني، وذيله نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي.

3- ميزان الاعتدال، وتذكرة الحفاظ، وتذهيب تهذيب الكمال، للذهبي لسان الميزان، وتقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني وكلها في رجال الحديث.

4- كتب المعاجم الخاصة ومنها: -

- معجم الأدباء لياقوت الحموي.
- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.

- معجم أدباء الأطباء لمحمد الخليلي.
- معجم الأطباء لأحمد عيسى.
- معجم الشعراء للمرزباني.
- المعجم في أصحاب القاضي الصدفي.

ولئن كانت الأمثلة كثيرة في هذا الباب فلأن المؤلفات فيه كثيرة أيضاً.

ويحسن بالطالب الباحث أن يتعرف على كتابين مهمين من كتب التراجم الحديثة هما كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي من كتب المشاهير، وكتاب معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة من الفئات الخاصة.

فكلا الرجلين قد بذل جهداً كبيراً في تعريفنا بأعلام العرب وأمدنا بطائفة من المصادر والمراجع حول كل علم يتم التعريف به.

وبينما يحيل الزركلي إلى أعلامه عن طريق الاسترشاد باسم الشهرة في موقعه الهجائي نجد كحالة يخصص الجزأين الأخيرين من كتابه للإحالات بحسب الجزء والصفحة. ويهتم الرجلان بإثبات التاريخين الهجري والميلادي في مستهل كل ترجمة ويعطيان نبذة عن العلم وحياته وآثاره وما كتب عنه.

— 2 —

فهرس الكتب والدوريات العربية:

ألفت في هذا الشأن كتب قيمة في القديم والحديث نذكر منها «الفهرست» للنديم، وفهرست ابن خير و«كشف الظنون» لحاجي خليفة، و«تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان، و«مفتاح السعادة» لطاشكبري زاده و«إيضاح المكنون» لاسماعيل البغدادي، وهو ذيل على كشف الظنون، و«الذريعة إلى تصانيف الشيعة» لآغا برزك، و«تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين، وفهارس المخطوطات بمختلف المكتبات الخطية في العالم وفهرس

المطبوعات العربية والمعربة لعواد كوكيس، و «مع المكتبة العربية» للدكتور عبد الرحمن عطبة، والببليوغرافياً الخاصة بكل قطر عربي، والدليل الببليوغرافي للمراجع العربية لسعد الهجرسي.

فإذا أراد الباحث عن كتاب يدخل في نطاق دائرة اختصاص هذه الكتب، فإنه واجد بغيته في حدود منهجها والفترة الزمنية التي تتناولها، وهو ما يتضح بعد قراءة مقدماتها ومعرفة مفاتيح البحث في موادها.

وأبرز فهارس الدوريات: دليل الدوريات العربية الجارية الذي أعده محمد المهدي وأصدرته الشعبة القومية لليونيسكو بمصر سنة 1965 م، والفهرس الإسلامي لبيرسون (Index Islamicus) وهو يحتوي على ما نشر في الدوريات الأجنبية من بحوث تتعلق بالعربية والإسلام والوطن العربي منذ سنة 1905 حتى الثمانيات من هذا القرن، وفهارس مجلات المكتبة الرئيسة لجامعة القاهرة الذي يتضمن المجلات المصرية والأجنبية حتى عام 1966 م، وأخيراً الكشاف التحليلي للصحف والمجلات العربية.

— 3 —

معاجم البلدان: -

في المكتبة العربية كتب تتحدث عن البلدان والقبائل والمواضع، مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري.

ويمكن أن يفيد الباحث في معرفة البلدان من كتب المسالك والممالك ومن الأطالس الحديثة ودوائر المعارف بالإضافة إلى المصادر الجغرافية الدقيقة.

— 4 —

دوائر المعارف: -

هي مؤلفات موسوعية تتناول شتى معارف الإنسان وعلومه، وتختلف

باختلاف مستويات كتابها ومراكز اهتماماتهم ومنهجية مباحثهم، وقد كان ترتيب هذه الموسوعات قديماً يعتمد على التسلسل التاريخي أو التقسيم بحسب الموضوعات والفنون، أما دوائر المعارف الحالية فتعتمد الترتيب الهجائي المألوف في تنظيم موادها، وهو ما جعلها أيسر استعمالاً وأعم فائدة.

وفرق آخر بين دوائر المعارف القديمة والحديثة هو أن الأولى كانت تؤلف بجهود فردية أما الثانية فأغلبها معتمد على جهود الفريق العلمي.

ودوائر المعارف كثيرة في العالم غير ما يتصل منها مباشرة بالثقافة العربية الإسلامية هو ما يلي: -

1 - **دائرة المعارف الإسلامية Encyslopedia of Islam**: التي أصدرتها جماعة من المستشرقين، ونشرت في اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية، معتمدة الترتيب الهجائي دون تجريد الكلمة من الزوائد.

وقد طبعت هذه الموسوعة في طبعتين، تُرجمت بعض أجزاء الطبعة الأولى إلى اللغة العربية، وتوقفت الترجمة قبل عَامها ليبتدأ ظهور ترجمة الطبعة الثانية والأغزر مادة، وهي ملتزمة بالمنهج السابق من حيث الترتيب الهجائي غير المجرد وتذييل المادة بطائفة من المصادر والمراجع مع بعض الإضافات أو التغييرات في المادة العلمية.

2 - **دائرة معارف البستاني**: صدر العدد الأول منها في الربع الأخير من القرن الماضي، وفي سنة 1956 أصدر أحد أفراد أسرة البستاني مجموعة من مجلدات هذه الموسوعة تبلغ اثني عشر مجلداً لم تتجاوز الحرف الأول من حروف الهجاء العربي.

3 - **دائرة معارف القرن العشرين**: مؤلفها هو محمد فريد وجدي وطبعت مرات عديدة في مجلداتها في إحدى هذه الطبعات عشرة، وهي تعيد الكلمة إلى أصلها الثلاثي وتتناول موضوعات ذات علاقة بالثقافة العربية والإسلامية بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة.

4 - **دائرة المعارف التركية (اينونو)**: بدأ صدورها في تركيا سنة 1946 وبلغ عدد إصداراتها حتى عام 1957 تسع مجلدات تتناول موضوعات شتى بينها معالجة قيمة للموضوعات الإسلامية.

5 - الموسوعة العربية: بيروت 1955.

6 - دائرة االمعارف الحديثة.

7 - دائرة معارف الناشئين.

8 - دائرة معارف الشباب.

وبرغم هذه الجهود لا زالت الحاجة ملحة إلى إصدار دائرة للمعارف الإسلامية والعربية تُكتب بروح مخلصة لهذا التراث وبموضوعية علمية متجردة، ولعل هذا ما تسعى إليه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالشروع في التخطيط لهذين العملين العظيمين.

— 5 —
معاجم اللغة

أنواعها ونظم استخدامها:

(أ) معاجم الألفاظ: -

يراد بمعاجم الألفاظ تلك المصادر التي تجمع مفردات اللغة وتوضح معانيها ودلالاتها، وقد عرفها العرب بعد الحاجة إليها وذلك عند اختلاطهم بالأعاجم وتسرب الدخيل إلى لغتهم على حساب مفردات قديمة لم تعد مستعملة في غير النصوص المحفوظة أو المدونة. كما أن حاجة المستعربين إلى فهم اللغة كانت تدعوهم إلى اقتناء المعاجم والرجوع إليها عند الضرورة.

وكان العلماء في القرن الأول وصدر الثاني يرجعون إلى الشعر باعتباره

ديوان العرب لمعرفة ما استغلق عليهم من ألفاظ القرآن وغريب الحديث ثم بدأ الإهتمام بشرح عوارض ألفاظ هذين المصدرين الأساسين في الشريعة الإسلامية. فكانت تلك المعاجم المهمة التي توالى تأليفها عبر القرون.

فمن مشاهير هذه القواميس في القرن الرابع تهذيب اللغة للأزهري والصحاح للجوهري، وفي القرن الخامس المحكم لابن سيده، وفي السادس أساس البلاغة للزمخشري وفي السابع لسان العرب لابن منظور وهو أشهر المعاجم العربية وأوفاها، وفي القرن الثامن القاموس المحيط للفيروز آبادي، وقد ذاع صيت هذا المعجم لما يتميز به من استقصاء لألفاظ اللغة، وصغر في الحجم يساعد على نقله واستعماله، مع عناية خاصة بالأعلام والأماكن. ثم شرح القاموس المحيط في القرن الثاني عشر الهجري في معجم تاج العروس للزبيدي، وتوالت بعده إصدارات هذا النوع من التأليف حتى عصرنا الحاضر، وتنوعت اهتماماتها وأحجامها وجهات إصدارها، وأبرز المعاجم المعاصرة «المعجم الوسيط» الذي طبع على نفقة الجامعة العربية.

نظم استخدام المعاجم: ـ

تخضع المعاجم إلى ثلاثة أنظمة مشهورة تدرجت زمانياً بحسب الترتيب التالي:

1 - نظام المخارج الصوتية: ـ

وتُرَتَّبُ موادُه بحسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفتين، فقد جاء ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد، وهو أول المعاجم السائرة على هذا النظام، على النحو التالي: ـ

ع، ح، هـ، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، ت، د، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ي، أ.

وسار عليه بالإضافة إلى معجم العين تهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده، والمحيط لابن عباد، والبارع للقالي، غير أن أصحاب هذه

المعاجم قد أحدثوا بعض الإضافات على أصل المنهج[1].

2 - نظام أواخر الحروف: -

يسير هذا النظام على الترتيب الهجائي المشرقي (أ، ب، ت... إلخ) إلا أنه يعتمد الحرف الأخير في ترتيب الكلمات فيجعله باباً، ويسمى الحرف الأول فصلاً، فالباء هي الباب في كلمة «كتب» أما الكاف فهو فصل داخلي في ترتيب حروف هذا الباب، في حين يعتبر حرف الكاف باباً في كلمة «ضحك» ويكون الضاد فيها فصلاً... وهكذا.

وقد تبعت هذا النظام أشهرُ المعاجم العربية القديمة مثل الصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس، والتكملة والذيل والصلة، ومجمع البحرين، والعباب، وينسب هذا النظام للجوهري، فهو أول من وفاه غايته بعد الفارابي الذي ألمع إليه إلماعاً[2].

3 - نظام أوائل الحروف: -

يشترك هذا النظام مع سابقه في اتباع ترتيب حروف الهجاء، ويختلف عنه في اعتماد الحرف الأول من الكلمات بعد تجريدها من الزوائد، فكلمة «كتب» في حرف الكاف «وقرأ» في حرف القاف، مع مراعاة ترتيب الحروف التالية بالنظام نفسه.

وسلكت المعاجم الحديثة هذا النمط لسهولة استعماله عند المطالعين على اختلاف مستوياتهم، على أن تجريد الحروف من الزوائد كان متبعاً في القواميس القديمة أيضاً، فكلمة «استخدام» تصبح بعد التجريد من الزوائد «خدم» وكلمة مذاكرة «ذكر» وهو أمر معروف لا ضرورة للإطالة فيه.

وقد سار على هذا النهج البرمكي في إعادة ترتيبه للصحاح والزمخشري

(1) راجع مقدمة الصحاح ص 96.
(2) أنظر مقدسة الصحاح ص 103.

في أساس البلاغة، والشيخ الزاوي في ترتيب القاموس، بالإضافة إلى المعاجم الحديثة.

(ب) معاجم المعاني: ـ

تقدمت بعض هذه المعاجم تاريخياً عن معاجم الألفاظ، وحظيت باهتمام العلماء، فألفوا رسائل أو كتباً في أسماء الوحوش والنبات والخيل والأسلحة، ثم تطورت واتسعت فكان من أشهرها معجم «الألفاظ الكتابية» للهمذاني في القرن الرابع، والمخصص لابن سيده في القرن الخامس وهو الذي يعد بحق أشهر معاجم المعاني وأشملها، ثم الأشباه والنظائر للأنباري في القرن السادس الهجري.

وتقسم هذه المعاجم إلى أبواب تدور حول معاني معروفة في اللغة، يذكر المؤلف في كل منها ما يدل عليها من الألفاظ. ففي باب العفو مثلاً: «تقول عفوت عن فلان، وصفحت عنه، وتغمدت ذنبه، وتجاوزت عن ذنبه، ومهدت عذره، وتجافيت عنه.. الخ»[1].

— 6 —

كتب الأنساب: ـ

اهتم قدماء العرب بهذه المعارف لأنها ميدان مفاخرتهم، واعتنى بها العلماء بعد الإسلام لأغراض تاريخية وتوثيقية، ولذا فقد أُلفت فيها كتب كثيرة منها «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم و«جمهرة أنساب العرب» للكلبي، و«الأنساب» للسمعاني، و«نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» للنويري ومن هذا ما يختص بفئة معينة مثل «معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي» للمستشرق زامباور، و«نسب قريش» للزبيري، بل منها ما لا يتعلق بالإنسان «كأنساب الخيل» لابن الكلبي.

(1) الألفاظ الكتابية للهمذاني ص 11.

— 7 —

معاجم ألفاظ القرآن الكريم: -

قد تكون بغية الباحث معرفة آية من كتاب الله لتصحيح قراءتها أو للتثبت من رقمها واسم السورة التي تشتمل عليها، ومن كان مفتاحه في ذلك ما يلي: -

1 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: - نشره سنة 1945 محمد فؤاد عبدالباقي في مجلد واحد، وهدفه كما تقدم تمكين الباحث من الوصول إلى موضوع أيِّ آية من الكتاب الكريم بالكشف عن أيِّ كلمة من كلماتها بعد تجريدها من الزوائد ثم ترتيبها هجائياً.

2 - معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم طبع سنة 1968 وتحقق الأغراض السابقة مع اختلاف يعرف من اهتمام عنوانه بالأعلام القرآنية إلى جانب الألفاظ.

3 - معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أشرف عليه مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

4 - معجم ألفاظ القرآن الكريم الذي رتبه فلوجل في القرن الماضي ليكون أول عمل من نوعه.

— 8 —

معاجم الحديث النبوي[1]: -

ألفه جماعة من المستشرقين سنة 1936 وطبع في سبعة مجلدات ضخمة تشتمل على إشارات إلى الأحاديث الواردة في تسعةٍ من كتب الحديث هي صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي، والنسائي، وأبي داود وابن ماجة والدارمي، ومسند أحمد، وموطأ مالك.

(1) أفدت في تلخيص هذا الغرض من كتاب «مع المكتبة العربية» للدكتور عبد الرحمن عطبة ص.

ورمزوا لها بالرموز التالية: ـ خ = البخاري ـ م = مسلم ـ ت = الترمذي ـ ن = النسائي ـ د= أبو داود ـ جه = ابن ماجه ـ دي: الدارمي حم: أحمد بن حنبل ـ ط: الموطأ.

وقسموا هذه الكتب إلى أربعة نظم بحسب طبيعة تأليفها: ـ

(أ) النظام الأول ويتكون من ستة كتب تنقسم إلى كتب وأبواب وهي: ـ

صحيح البخاري، وسنن الترمذي، والنسائي، وأبي داود، وابن ماجة، والدارمي.

مثال: ـ (ت أدب 15) أي: سنن الترمذي، كتاب الأدب، الباب الخامس عشر.

(ب) النظام الثاني: ـ ويتكون من كتب وأحاديث مسلسلة الترقيم، وعلى هذا النظام نجد: صحيح مسلم فقط.

مثال: ـ (م فضائل الصحابة 165) أي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة الحديث رقم 165.

(جـ) النظام الثالث: ـ موضوعات وأحاديث مسلسلة، وهو نظام التأليف في موطأ مالك.

مثال: ـ (ط حج 227) أي: موطأ مالك مبحث الحج الحديث رقم 227.

(د) النظام الرابع: ـ أجزاء وصفحات:

وعليه سار مسند أحمد بن حنبل.

مثال: ـ (حم 175/4) أي مسند أحمد بن حنبل الجزء الرابع ص 175.

ويتم الوصول إلى معلومات عن أيّ حديث في المعجم المفهرس. بتجريد أي كلمة من الزوائد، ثم كشف موقعها فيه حسب ترتيبها الهجائي.

2 - مفتاح كنوز السنة: -

وضعه بالإنجليزية أ. ي فنسنك وعربه محمد فؤاد عبد الباقي، وقد أراد مؤلفه أن يكون معجماً مفهرساً للكشف عن الأحاديث النبوية المدونة في البخاري وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وذلك ببيان رقم الباب، وفي صحيح مسلم والموطأ ومسندي الطيالسي وزيد بن علي ببيان رقم الحديث، وفي مسند أحمد وطبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام ومغازي الواقدي ببيان رقم الصفحات. غير أنه يقل في أهمية وشموليته عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث كثيراً.

— 9 —

معاجم المصطلحات: -

المصطلح: - هو اللفظ المستخدم في علم من العلوم استخداماً خاصاً ليدل على معنى بعينه في ذلك العلم.

وقد أدت حاجة الدارسين إلى معرفة المعاني الدقيقة لهذه المصطلحات إلى ضرورة تأليف معاجم خاصة فيها، فمن ذلك: -

1 - **معجم البلاغة العربية، للدكتور بدوي طبانة**: يقع في مجلدين يشتملان على مصطلحات البلاغة والنقد في التراث العربي، وهو أحد منشورات جامعة طرابلس سنة 1977.

قسم المعجم إلى أبواب مرتبة حسب ترتيب حروف الهجاء، ورتبت المصطلحات في داخل الأبواب ترتيباً هجائياً أيضاً بعد تجريد الكلمة من الزوائد، وردها إلى أصلها اللغوي.

2 - **المعجم الأدبي، لجبور عبدالنور**: نُشرت الطبعة الأولى من هذا المعجم سنة 1979 م، وقد قسمه مؤلفه إلى قسمين، ساق في الأول ما اختاره من المصطلحات الأدبية والمذاهب والمدارس والتيارات الأدبية، ورتب ذلك

ترتيباً هجائياً، وألقى في القسم الثاني نظرة خاطفة على مجموعة من الآداب العالمية.

3 - **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، لمجدي وهبه وكامل المهندس**: نشر بمكتبة لبنان سنة 1979، مراعياً الاقتصار على المصطلحات العربية للغات وآداب الغربيين التي يهتم بها الباحث العربي.

4 - **معجم الأدب لمجدي وهبه**: هذا المعجم هو الأصل الذي اعتمد عليه مؤلفا المعجم السابق، وقد تميز معجمهما بالإفاضة في التعرض للمصطلحات المتعلقة باللغة العربية وآدابها.

5 - **المصطلح في الأدب الغربي لناصر الحوفي**: نشر سنة 1968 وهو كما يفهم من عنوانه خاص بالمصطلحات السائرة في الأدب الغربي.

6 - **معاجم المصطلحات الفقهية**: وهي معاجم المصطلحات المتصلة بالتراث الإسلامي الفقهي ومنها: -

(أ) موسوعة الفقة الإسلامي، المعروفة بموسوعة جمال عبدالناصر، والصادرة في القاهرة.

وهي موسوعة كبيرة الأهمية مرتبة على حروف الهجاء ولكنها لم تتجاوز الحرف الأول منها حتى الآن.

(ب) القاموس الفقهي، لسعدي أبو جيب، المنشور عن دار الفكر بدمشق.

(جـ) معجم الفقه الحنبلي، الذي أشرفت عليه وزارة الأوقاف الكويتية سنة 1973 م.

(د) القاموس الإسلامي لأحمد عطيه، وهو مؤلَّفٌ على قدر كبير من الأهمية، صدر منه خمسة أجزاء، حتى تاريخ كتابة هذه الأوراق،

تشتمل على ما يتعلق بالإسلام من مصطلحات وأعلام ومعالم وغيرها، ولذا ففي وضعه ضمن المعاجم الفقهية تجاوز.

7 - **معاجم المصطلحات الصوفية ومنها**: -

(أ) معجم المصطلحات الصوفية، للدكتور عبدالمنعم الحنفي.
(ب) المعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم، وقد نشر سنة 1981 م.

8 - **معاجم المصطلحات الفلسفية ومنها**: المعجم الذي وضعه مجمع اللغة العربية سنة 1979، وفي السنة نفسها أخرج جميل صليبة معجماً فلسفياً آخر في مجلد واحد.

9 - **معاجم المصطلحات النحوية والصرفية، ومنها**: معجم النحو لعبدالغني الدقر 1975 م.

10 - **معاجم المصطلحات العلمية والتقنية**: التي أصدرتها مجامع اللغة العربية في سوريا والعراق ومصر، ومشاريع المعاجم في مجلة اللسان العربي الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب بالمغرب.

ولا زالت المطابع تدفع بالأعداد المتوالية من هذه المعاجم التي وردت هنا بعض الأمثلة عليها، وهي تختلف في مستويات تأليفها وسعة مادتها ومنهجية عرضها.

وتجدر الإشارة في مجال المصطلحات العلمية إلى مصدر تراثي عام يتناول مصطلحات كثيرة كانت مستعملة في تراثنا العلمي هو «كشاف اصطلاح الفنون» لمحمد أعلى التهانوي أحد رجال القرن الثاني عشر الهجري. ويلي هذا المصدر أهمية كتاب «مفاتيح العلوم للخوارزمي»، و«التعريفات» للجرجاني وهما أسبق من كتاب التهانوي تاريخاً.

ونذكر في سياق هذا النوع من مفاتيح العلوم أن مُؤَلفاً جامعاً قد اشتمل على أسماء المعاجم العلمية المتخصصة هو «المعجمات العربية المتخصصة» من

إعداد وجدي رزق علي، ونشر الهيئة المصرية للتأليف والنشر بالقاهرة سنة 1971 م.

— 10 —

معاجم الأمثال: ـ

معاجم الأمثال أو كتب الأمثال مؤلفات متخصصة تُعني بجمع الأمثال وذكر قصصها ومضاربها، فمنها: ـ

(أ) أمثال العرب للمفضل بن محمد الضبي.

وطبع لأول مرة سنة 1300 هـ ثم طبع مرات متتالية كان آخرها ـ فيما أعلم ـ طبعة دار الرائد العربي سنة 1981 م.

(ب) مجمع الأمثال. لأحمد الميداني.

طبع في مجلدين طبعات كثيرة.

(جـ) أمثال أبي عكرمة الضبي الذي نشر في دمشق بتحقيق رمضان عبدالتواب سنة 1974 م.

(د) الأمثال العربية. لـرودلـف زلهايم. صدر في بيروت سنة 1971 م.

(هـ) الأمثال في النثر العربي. لعبدالمجيد عابدين ط سنة 1956 م.

(و) جمهرة الأمثال. للعسكري، نشر سنة 1964 م.

(ز) الوسيط في الأمثال للواحدي. نشر في الكويت سنة 1975 م.

— 11 —

فهارس الأشعار: ـ

لعله من الطموحات غير البعيدة في عصر الحاسوب الآلي أن يصدر الباحثون المؤمنون بأسلوب عمل الفريق فهرساً عاماً لأشعار العرب ليدل

القارىء على قائل أيّ بيت من الشعر العربي، ولكن ذلك غير متوفر الآن، فلا بد والحالة هذه من التفكير في فهارس أخرى تعين الباحث على الوصول إلى بغيته في هذا الصدد.

والفهارس المتيسرة الآن هي مظان وليست مجامع لكل أشعار العرب، وهي إلى ذلك لا تعطي فوائد لغير الباحث الخبير بخصائص الشعر العربي المدرك بحسه النقدي لطبيعة اتجاهاته في كل عصر.

فإذا كانت القرائن تشير إلى أنه جاهلي فإن أمامه الفهارس التالية: ـ

(أ) فهارس قوافي «المفضليات» بتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. (طبع دار المعارف).

(ب) فهرس قوافي «الأصمعيات» للمحققين السابقين (طبع دار المعارف).

(جـ) فهارس جمهرة أشعار العرب.

وإذا لم يتبين الباحث خصائص الشعر فأمامه فهارس قوافي كتاب الأغاني؛ إذ لكثرة ما فيه من الشعر يُعدُّ موسوعة مستفيضة لا يمكن إغفالها، وبالأخص بعد أن أولى المحققون عناية كبيرة لفهارس قوافية.

وقد يدرك الباحث بحسه أو من خلال خلفيته الدراسية أن البيت شاهد نحوي، وعليه في هذه الحالة أن يعود إلى معجم شواهد العربية لعبدالسلام هارون لاشتماله على تلك الشواهد، وعنايته بإسنادها.

وإن ظن أنه شعر أندلسي من خلال درايته بخصائص ذلك الشعر عاد إلى فهرس القوافي الذي أعده. د. إحسان عباس في تحقيقه لنفح الطيب (طبعة دار صادر). وقد أفرد فيه فهارس خاصة بالموشحات والأزجال والأشعار.

ولنذكر أيضاً أن الخصائص المميزة لبعض الشعراء تجعل ظنون الناقد الفطن لا تخطىء في كثير من الأحيان، فحكمة المتنبي، وحجازيات

الشريف الرضي، وغزل المجنون، وزهد أبي العتاهية وخمريات أبي نواس ذوات طوابع مميزة تيسر للباحث أمر اكتشاف مظانها ونسبتها بالتالي إلى أصحابها.

وأَوْلى تلك المظان بالعناية فهارس القوافي في دواوين الشعراء، إذ أن ديوان الشاعر هو المصدر الأَوليّ لأشعاره، فإن لم يحتو على البيت المطلوب روجعت مظان أخرى مثل كتب التاريخ الأدبي، ومجاميع الشعر، وفهارس الأشعار في كتب التراجم.

التفكير العلمي والبرهنة

قد يكون البحث سليماً في لغته، أنيقاً في أسلوبه، ولكنه محشو بأفكار مضطربة وبراهين معيبة أو ضعيفة، وعند ذلك يصبح البحث مجرد جلبة صوتية خالية من القيمة الحقيقية للبحث العلمي، ومن هنا كانت العناية بالتفكير العلمي لمعرفة معاييره وأخطائه ضرورية للباحث الجاد.

فالتفكير العلمي هو حسن استخدام العقل في تفسير الأمور وتنظيمها، وفق سبل منطقية، وخطوات منهجية متعاقبة.

وليس غرض هذا البحث أن يغوص في دروس المنطق فيتناول قوانين التفكير المنطقي المبسوطة في كتبه؛ كقانون الهوية، وقانون التناقض، وقانون الثالث المرفوع. ولكن يكفي أن نقف عند بعض المعايير التي يقاس بها صواب البحث العلمي من خطئه وتوفيقه من عدمه، وأهمها ما يلي :-

1 - مدى اتباع المنهج العلمي الصحيح الذي يدل على أن كاتب البحث ذو عقل منظم، بعيدٍ في كتابته عن العشوائية والتخبط[1] والتناقض.

2 - مدى اتباع الدقة في استعمال اللغة؛ إذ لا مكان في منطق البحث للكلمات الضبابية، والعبارات العامة، والمصطلحات الغامضة وغيرها من

---

(1) انظر التفكير العلمي د. فؤاد زكريا ص 31.

الكلمات التي يصعب تحديد معناها الدقيق، ما لم توضح هذه أو تلك بالأمثلة أو بالشرح والتعليق.

3 - **الموضوعية**: وهي أن يتجرد الكاتب من الذاتية والتعصب، ويلتزم الإنصاف والحَيْدة في مناقشة الموضوع المدروس، فالباحث القدير هو ذلك الذي يملك عقلاً لا يخضع للآراء دون اختبارها، ولا يضيق بآراء الآخرين أو يخفيها لأنها تخالف آراءه وميوله الشخصية، بل عليه أن يثبتها، إذا دعت إلى إثباتها حاجة البحث، وأن يعلن موافقته عليها أو رفضها بالأدلة الكافية إثباتاً أو نفياً.

ولا يعني القول بعدم الخضوع لآراء السابقين التنكر لجهودهم، أو أن تبخس أشياؤهم بحجة الموضوعية والحيدة، ولكن أن تعرض تلك الآراء على ميزان التفكير ومعاييره دون مصيونية أو حصانة، فإذا ثبتت صحتها تبناها الكاتب ودافع عنها بمنطق العقل وبراهينه المنظمة.

ومن الموضوعية أن يتحصن الباحث بالأمانة العلمية في الأخذ من الآخرين والإحالة إلى المصادر والمراجع المساعدة؛ فذلك مما يزيد من قيمة البحث وبهائه، ويزيد صاحبه احتراماً وثقة في نظر قرائه وناقديه.

ولا ينقص اعتماد الباحث على جهود غيره شيئاً من قيمة عمله، إذا كان مراعياً لقواعد الاقتباس وأخلاقيات الأخذ، «فليس الأسد إلا مجموعة من الخراف المهضومة» كما يقول المثل.

وقد لخص بعض الباحثين المقصود بالموضوعية فقال: «أن يكون التفكير مرتبطاً بسلوك الظواهر الخاضعة للملاحظة، بحيث تصبح طبيعة الدراسة هي الفيصل في الحكم على الظاهرة الخاضعة للملاحظة، بحيث تصبح طبيعة الدراسة هي الفيصل في الحكم على الظواهر، دون اعتماد على ميول الذات الباحثة، ولا عواطفها، وآرائها الشخصية، ومعتقداتها»[1].

---

(1) الأصول، تمام حسان ص14 ط1.

4 - **المنطقية**: ويقصد بها أن يكون السير في البحث وفق خطوات مرتبة يقبلها العقل السليم، وأن تكون البرهنة على أفكاره مناسبة وكافية لإثبات مسائل البحث وقضاياه.

فالمنطقية ضرورية إذن في عملية الاستدلال، وفي تقسيم البحث وسلامته من الخلل والاضطراب والاستطراد.

أخطاء التفكير: -

قد تتسرب إلى البحث أخطاءٌ ناتجة عن هفوات في طريقة البرهنة، أو عن سوء الربط بين الظواهر المدروسة، أو عن التناقض في التفكير أو عرض القضايا، أو عن الإسراف في الذاتية ومتابعة ميول النفس.

وقد أرجع «بيكون» أسباب الوقوع في الأخطاء إلى أربعة عوامل: منها الإنساني العام، والذاتي الخاص، والناجم عن سوء استعمال اللغة في التعبير عن المقصود، ومنها الناتج عن الخضوع إلى الآراء السائدة أو السابقة.

ونجمل فيما يلي بعضاً من تلك الأخطاء الشائعة في الكتابة والتفكير:

1 - التعميم: -

ينتج التعميم عادة من تشابه الظواهر، أو من تسرع المرء في تعميم أحكامه بعد ملاحظة أمثلة جزئية لا تكفي لإصدار الأحكام العامة.

فالقول بأن كل الناس يحبون شيئاً معيناً أو يكرهونه مهما كان إقبالهم عليه أو نفورهم منه يعد ضرباً من الادعاءات التخمينية، التي لا تسلم من الاستثنائية، وهذه الاستثنائية قد تكون كفيلة بنقض الحكم أو تعديله ما لم تكن معدودة في حكم الشواذ، ويثبت ذلك بالطرق الإحصائية أو الاستقرائية.

ومن الألفاظ التي ينبغي في هذا الصدد أن نتعامل معها بحذر شديد في لغتنا العربية ألفاظ مثل: جميع، وكل، وكافة، ومطلقاً، ودائماً، وبعامة؛ وذلك لأنها تعطي تأكيدات شمولية قد لا يصدقها الواقع ولا تؤازرها الحقيقة.

وربما كان الحكم المتضمن لهذه الألفاظ صائباً أو قريباً من الصواب، مثل القول بأن «كل أفراد هذه الفئة يتصفون بكذا» ولكن ذلك يظل محض ادعاءٍ في موضع الشك حتى يقدم الباحث الأدلة التي تقنع المتلقى.

التهوين: -

يشترك هذا العيب مع سابقه في أنه لا يضع الأمور في حجمها الصحيح، فحين يُدخل الكاتب بالتعميم أموراً ربما كانت خارجة عن الموضوع، قد يتغاضى بالتهوين عن جوانب يجب ألَّا يغفلها وهو يصدر أحكامه.

ولكنه يقابل من أخطاء التفكير خطأ المبالغة والغلو أكثر من مقابلته للتعميم، فكما تقتضي المبالغة والغلو تضخيم الأشياء واجتناب الحقيقة في وصفها يقتضي التهوين تحقيرها أو الإفراط في تيسرها.

إن الكاتب الذي يقع في خطأ التهوين يتعامل سطحياً مع مشكلة تحتاج إلى التحليل وإمعان النظر قبل الوصول إلى استنتاج صحيح، كأن تقول مثلاً: «ليس علينا لضمان محو الأمية في البلاد العربية إلَّا أن نضاعف من علاوة التدريس». أو أن تقول: «إن حلَّ قضية فلسطين يكمن في توحيد فصائل المقاومة».

نعم إن الرفع من علاوة التدريس قد يكون حافزاً مشجعاً للبذل والعطاء من قبل المدرسين، وتوحيد فصائل المقاومة أمر ضروري ولكن مثل هذه القضايا الكبرى تحتاج إلى دراسات شاملة تساوي تعقيدها واتساع جوانبها، وتتطلب جهوداً متواصلة لتقديم اقتراحات متعددة لحلها.

موافقة الهوى:

هو عيب خطير ينبغي أن يتفاداه الكاتب في تناوله لقضايا بحثه، إذ فيه تجتمع طائفة من المعوقات الهدامة لأي تفكير علمي، لعل أبرزها التعصب

والانحياز إلى رأي دون التفكير في بنائه المنطقي، والميل إلى تحقيق فروض يتمنى المرء لو توصل إليها من خلال بحثه، وقد يعمد في سبيل ذلك إلى الاكتفاء بالأدلة الضعيفة والقاصرة، ويتجاهل غيرها من الأدلة القوية الواضحة.

وأبرز مخاطر هذا العيب افتقاره للموضوعية، وهي أساس معايير البحث العلمي وأوضح ملامح تعريفه؛ فَزَعْمُ اليهود بأنهم أحق بفلسطين لأنهم كانوا هناك وأسسوا ممالك يذكرها التاريخ.. ودعوتهم ليهود العالم بالعودة إليها. من الأخطاء المفتقرة للموضوعية نتيجة الخضوع للأهواء.

إن القول بأنهم كانوا في فلسطين جعلهم يتجاهلون ما تؤكده مصادرهم التاريخية وكتبهم الدينية من وجود الكنعانيين فيها، وحكمها من قبل غيرهم فترات أطول من فترات حكمهم لها.

والقول بأن لهم الحق في العودة جميعاً ينافي ناموس الحياة البشرية التي تقضي بحركة البشر من المناطق المزدحمة إلى مناطق الفراغ ولا تسمح بالعكس.

وقد كانت منطقة الشرق الأوسط أشبه بالرحم التي تدفع البشر إلى خارجها، أفيجوز لرجل أن يعود إلى الرحم بحجة أنه كان فيه يوماً؟! أم يجوز لشعب بلغ عشرين مليوناً أن يعود إلى أرض مأهولة بالسكان لا تزيد مساحتها عن (27.000 كم²) بحجة أن أجداده أقاموا فيها ممالك قبل ألفي عام؟

ولنا أن نتصور لو قبلنا بهذا المنطق عودة السلالات الإنكليزية من أمريكا وأستراليا وسواهما إلى الجزيرة البريطانية، أو عودة اللبنانيين في الأمريكتين وأفريقيا وسواهما إلى لبنان.. أتكفي تلك الجزيرة الصغيرة نسبياً، أو ذلك الشريط المحدود لهذه الأعداد التي تنتمي إليها والمنتشرة في كافة أنحاء العالم؟ وقس على ذلك الإسبان والبرتغاليين.

وهذا لو سلمنا أن اليهودية جنس واحد له خصائصه المميزة، وليست ديناً تنتمي إليه أجناس مختلفة، تجمع بين الفلاشي الأسود والأوروبي الأبيض والآسيوي الأسمر أو الأصفر.

وهكذا نلحظ أن موافقة الهوى تجاوزت كل هذه الآراء القوية والمعارضة لوجهة النظر المعروضة من قبل اليهود، وبذلك نرى أن هذا العيب من الأخطاء المركبة التي تجعل صاحبها يتجاهل أدلة واضحة ويدفع بأدلة ضعيفة.

الخضوع للآراء السائدة: -

قد تكون الآراء السائدة قضايا للنقاش فلا يصح اعتبارها ضمن المسلمات ولا يجوز للباحث أن يضعها موضع التسليم والاتفاق، بل إن المسلمات ذاتها لا تنتزع هذه الصفة حتى تكون أدلة ثبوتها واضحة لكل ذي بصيرة ومنطق قابلة للتحقيق والضبط.

ويدخل في هذا النوع من عيون التفكير الخضوع لكل ما اعتمد على شهرة أو قدم من الآراء أو الأشخاص دون الاعتماد على حججه وبراهينه.

غير أن هذا التحذير لا يعني نسف تلك الآراء أو التنكر للسابقين بقصد الانتصار للجديد مهما كانت طبيعته، بل يعني عرضها على ميزان النقد والتمحيص حتى يتبين وجه الصواب أو الخطأ فيها بالدليل المقنع.

ويستتبع هذا التحذير تنبيه إلى خطورة المخالفة للآراء السابقة من أجل الشهرة، وهو ما يقوم به ضعاف التفكير ومحبو الظهور السائرون مع المثل القائل «خالف تعرف».

5 - **المقارنة الخاطئة**: المقارنة بين طرفين تستدعي تشابهاً في خصائصهما يكفي لعقد تلك المقارنة، ومن الخطأ أن نعقد مقارنة بين أمرين مختلفين في الصفات والظروف لمجرد وجود علاقات واهية لا تساندها الحقائق العلمية.

وكثيراً ما يغفل الذين يعقدون المقارنات الخاطئة أسباباً فارقة جوهرية في موضوع المناقشة، ويركزون على عناصر مُشابهةٍ ثانوية، كأن يطالب أحد الشباب غير المؤهلين بدخول الجامعة بحجة أنه مواطن له ذات الحق في التعليم، ويملك الرغبة التي دفعت غيره لدخولها.

سوء البرهنة:

يمكن أن يدخل في هذا العيب كثير من أخطاء التفكير، غير أن أقربها إليه هو انقطاع الصلة بين الدليل والموضوع، وسوق الأسباب الخاطئة والبراهين الضعيفة أو غير الكافية أو غير المناسبة أي خارجة عن الموضوع المناقش.

فالبرهان عمل عقلي يتدرج فيه الفكر من شيء معلوم مسلم إلى مجهول مرتب عليه، وأي خلل في العقل المدبر أو في مقدمات القضايا وترتيبها يؤثر على صحة نتائجها.

المهاجمة الشخصية: ـ

كثيراً ما يختلف متحاوران في قضية من القضايا ويحتد النقاش بينهما حتى يتناولا أو أحدهما شخص صاحبه فيعرض بماضيه أو أخلاقه أو شكله مما لا علاقة له بموضوع النقاش، ويسمى هذا العيب بين أخطاء التفكير بالمهاجمة الشخصية.

البديلان: ـ

من قوانين التفكير المنطقي قانون يسمى الثالث المرفوع وصيغته «إما أن يكون الشيء أبيض أو لا أبيض» ولا ثالث لهما، ولا خلاف على هذا، غير أن البديلين المرفوضين في التفكير السليم هو القول بأن «الشيء إما أن يكون أبيض أو أسود»؛ ذلك أن في الطبيعة ألواناً كثيرة يمكن أن يكون عليها ذلك الشيء، كالأصفر والأحمر والأزرق والأخضر الخ. وخطأ استعمال البديلين شائع في حياتنا وهو يعود إلى ضيق الأفق، وعدم قدرة العقل العاجز عن توسيع دائرة الاختيار في انتقاء البدائل الممكنة، وتقليب الأمر الواجب على وجوهه كلها حتى تتضح ملامحه من وجهات نظر مختلفة.

الاحتجاج بغير الحجة: ـ

قد تكون حجة الباحث أو المناقش معتمدة على آراء شخص ليس حجة

في القضية المثارة وإن كان مبرزاً في غيرها، ويتصل بهذا الخطأ، في صورة أقل خطورة من سابقها أن يعتمد الباحث على مراجع ثانوية في البرهنة والاستشهاد ويغفل المصادر الأصلية.

الأسباب الخاطئة: -

من عوامل الوقوع في الأخطاء الفكرية أن تنسب الأمور إلى غير أسبابها، كأن يحدث انهيار عصبي لأحد الطلبة المجتهدين فنسرع بالحكم على سبب ذلك بكثرة القراءة، وكالربط بين عواء الكلب بصورة خاصَّة وحدوث حالة وفاة في اليوم نفسه.

الاحتجاج بعمل الأكثرية: -

إجماع الناس أو أكثرهم على أمر من الأمور يعطيه دون شك قبولاً في النفوس، ذلك أن إلتقاء العقول على أمر واحد يعني أنه جدير بالاهتمام.

غير أن فعل الناس قد يكون محض تقليد كما يحدث في التعليقات التي تنتشر دون باعث عقلي واضح، ومن هنا كان على الباحث ألا يقبل الاحتجاج بأن «كل يفعل هذا» ما لم يثبت له صحة الموضوع بالأدلة والبراهين العقلية أو الحسية.

فالأغلبية قد تكون على خطأ والتاريخ يثبت ذلك في أمثلة متعددة.. كان الرسول ﷺ يدعو إلى الحق في الأيام الأولى لبعثته وليس معه سوى نفر قليل من المؤمنين وكانت الأغلبية في موقع المعارضة.. وكم عانى المخترعون والعلماء في سبيل توصيل أفكارهم إلى الأغلبية الخاضعة للنظريات السائدة حتى قدم بعضهم حياته بسبب جديده المخالف لما في عقول السواد الأعظم.

اللف والدوران: -

البحث العلمي يستدعي وضوح الفكرة في الذهن، والتدرج في بسطها

للمتلقي تدرجاً منطقياً يقصد مباشرة إلى خطوة جديدة في كل جملة من جمل الموضوع، أما سرد المقدمات الإنشائية الجوفاء أو تكرار المعاني السابقة بأساليب مختلفة فهو عيب ثقيل يقع فيه الضعفاء والذين لم تختمر في أذهانهم صورة الموضوع الذي يعالجونه.

ويكثر ذلك في أجوبة الطلاب ذوي الاستعداد المحدود لاجتياز الإمتحانات أو لكتابة الأبحاث.. وهذا فيما يلي مثال حيٌّ من جواب أحدهم في امتحان مادة الأدب الأندلسي: ـ

«الشاعر يوسف الرمادي هو من أفضل شعراء الأندلس الذين عاشوا في قرطبة، وقد عاش أيامه في قرطبة فكان من أفضل الشعراء فيها... الخ».

فهو كما ترى أعاد وصف الرمادي بالشاعر في ثلاثة مواضع وذكر حياته بقرطبة في موضعين، وكونه أفضل الشعراء ـ وهو محل نظر ـ في جملتين، فأساء بذلك إلى أسلوبه بعيب يمكن أن نطلق عليه مصطلح «اللف والدوران».

وأخيراً فإن التفكير المنطقي يعتمد على ثلاثة عناصر أساسية هي العنصر الفطري، وفيه يتفاضل البشر بحسب ما جبلوا عليه من سمات خِلْقِية.. والعنصر الإنفعالي الذي يتطلب اختيار الظروف المناسبة للتفكير السليم، بما في ذلك هدوء النفس وخلوها من الاضطراب والتشويش والعجلة والقلق وغير ذلك من المشاغل والمشاكل التي تشتت التفكير وتحول دون الوصول إلى الحكم الصائب المتزن. ولقد أصاب فقهاء الشريعة الإسلامية حين منعوا القاضي من إصدار أحكامه في حالات الاضطراب النفسي والغضب.

أما العنصر الثالث فهو العنصر العلمي الذي يصقل المواهب الفطرية بالمعارف وتجارب الآخرين ونتائج عقولهم.

خطوات البحث: ـ

بعد هذه الإطلالة السريعة على منهجية البحث التراثي ومصادره ومحاذير

البرهنة على أفكاره تجدر الإشارة إلى خطوات البحث وعرضها بالصورة المختصرة التي عرضت بها سائر موضوعات هذه الورقات: -

1 - فالخطوة الأولى هي اختيار البحث: -

قد يوكل أمر اختيار البحث في المراحل الأولى من الدراسة الجامعية وما دونها إلى أستاذ المادة، ولا يكون على الطالب في هذه الحالة سوى اعداد ورقة بحث محددة الموضوع، تتناول ملخصاً لما كتبه مؤلفون سابقون في مجال البحث، وربما زُود الطالب ببعض كتبهم قبل الشروع في عمله.

على أن أمر الاختيار سيوكل للطالب فيما بعد هذه المرحلة، حتى يكون الموضوع إبناً طبيعياً له وليس ابنه بالتبني. والاختيار على هذا النحو يتطلب سعة اطلاع على المجال الذي يرمي الباحث إلى دراسته حتى يستخلص منه موضوعاً معيناً يشعر بالميل نحوه والحاجة إلى دراسته، ويراعي في اختياره أن يكون متناسباً مع قدرات الباحث وإمكاناته، وأن تكون له أهداف علمية واضحة.

2 - الخطوة الثانية، تحديد الموضوع: -

اختيار الموضوع مرتبط بنقطة مهمة جداً هي تحديده زمانياً أو مكانياً أو موضوعياً، ذلك أن التحديد يجعله محصوراً في نطاق ضيق يمكن الإلمام به، ويكفل للباحث تحقيق النجاح المطلوب في الوصول إلى نتائجه بأيسر السبل وأسرع الأوقات، حين يقود عدم التحديد إلى متاهات مجهولة بعيدة عن النهج الصحيح في ميادين البحث العلمي.

3 - تجميع المصادر والمراجع: -

المصادر هي المواد الأصيلة ذات العلاقة المباشرة بموضوع البحث، أما المراجع فهي تلك الدراسات التي ترتبط به ارتباطاً معيناً (نقداً أو تفسيراً أو مقارنة) معتمدة في تناوله على المصادر الأصيلة.

وإذا كانت المصادر تقع في المرتبة الأولى من حيث الأهمية فإن المراجع تقع في درجة من الأهمية لا يستهان بها لأنها تسهم دون شك في توسيع مدارك الباحث ومجال الدراسة بما تزوده به من نظرات وما تسفر عنه من نتائج أو قضايا للنقاش.

وتُسجل المصادر والمراجع التي تدخل في نطاق البحث على قائمة أولية، لا يهمل فيها الباحث تلك الكتب والدراسات التي تمت أجزاءٌ منها إلى البحث بسبب؛ فعسى أن تكون للإشارات الصغيرة أهمية قصوى في توجيه الدراسة وتوثيق نتائجها.

وتختلف مفاتيح المصادر والمراجع باختلاف موضوع الدراسة؛ إذ تشتمل المكتبة العربية على عدد وافر منها، كما رأينا في فقرة المكتبة والمصادر بهذه الأوراق.

وربما جعلت تلك الفقرة أمر الحصول على معلومات، أو مصادرَ عن علم أو بلد شيئاً ميسوراً لكل الباحثين، لكنها لم توضح بصورة كافية مفاتيح مصادر الموضوعات الفكرية والأدبية..

نعم إن فهارس الكتب قديمها وحديثها وفهارس الدوريات ودور النشر ودوائر المعارف قد تعين الباحث في تجميع المصادر والمراجع حول موضوعه، وقد سبقت الإشارة إليها في مواضعها من هذه الأوراق، لكن الذي لم يُذكَر هناك على أهميته هو الاطلاع الواسع على الكتب المتخصصة في مجال البحث المطلوب، حيث يجد القارىء المثابر أنَّ مصادره تتزايد مع كل خطوة يخطوها في سعيه إلى الالمام بموضوعه، ويرى أن من سبقه قد استعان بمصادر ومراجع كثيرة يمكن أن يضمها إلى مصادر بحثه، وسيكتشف مع الأيام طبيعة المصادر الأصيلة والثانوية، والعميقة والسطحية، والوثيقة والأقل ثقة.

4 - القراءة وأخذ الملاحظات: -

إن مهارة الباحث في استخدام نوع القراءة المناسب لما بين يديه من

المؤلفات أمر ضروري جداً، لما فيه من اختصار للوقت وتوفير للجهد؛ إذ يتطلب منه اطلاعه على عدد كبير من المصادر والمراجع أن يقلب آلاف الصفحات، وعليه أن يكون قادراً على التمييز بين المواطن التي يسرع فيها أو يبطىء، وبين ما يحتاج إلى التحليل والنقد، وما يحتاج إلى التسجيل نصاً أو إشارة، وما تكفي في مراجعته نظرة إلى فهرس الموضوعات تقنعه بقراءة شاملة أو جزئية أو تدفعه إلى الاستغناء عن ذلك أو تأجيله.

ويقترح بعض الكتاب تسجيل الملاحظات في بطاقات صغيرة ليسهل ترتيبها بحسب موادها، على أن يُكتب في طرف كل بطاقة اسم الكتاب ومعلومات نشره.

ويرى غيرهم كتابة الملاحظات في ملف حامل للأوراق، ويرون أن ذلك أجمع للملاحظات وأحفظ لها من الضياع.

5 - تخطيط البحث: -

عند بداية هذه الخطوة يكون الباحث قد اطلع على قدر كبير من المصادر والمراجع، فدوَّن الكثير من الملاحظات واستوعب في ذهنه أفكاراً أخرى لم ير ضرورة لتسجيلها، وبهذه الملاحظات وتلك الأفكار يمكنه تخطيط بحثه الجديد.

وعليه في هذه المرحلة أن يعيد قراءة ما كتبه سن ملاحظات قراءة تحليليةً «مبيناً أوجه القوة والضعف وأوجه الاعتدال والانحراف... وغيرها من الأفكار المتصلة بالموضوع»[1]. ثم يُصنف تلك الملاحظات والاقتباسات في أقسام أو فصول متمايزة ولكنها مرتبطة منطقياً وفق منهج علمي سليم، بل إن ذلك مما يجب مراعاته في ترتيب أفكار الفصل الواحد أيضاً.

6 - الصياغة الأولى: -

الآن وقد جُمعت المادة العلمية وقسمت إلى فصول متمايزة، ورُتبت

(1) «أصول البحث العلمي ومناهجه» أحمد بدر ص 23.

الأفكار داخل الفصل الواحد، فليس على الباحث إلاَّ أن ينظم هذه الأفكار في سلك من نسج ألفاظه، ويمنحها من أسلوبه الخاص ما يكسبها صفة الإبداع والذاتية، ففي هذه المرحلة يُتوقع من الكاتب أن يرسم لنفسه شخصية متميزة قادرة على الربط والتحليل وحسن الإفادة من الوثائق المتوفرة.

ويراعي عند الاستعانة بآراء الآخرين ضرورة عزو الفكرة إلى أصحابها، ويتمثل ذلك في صورتين.

أولهما: أن تصاغ الفكرة بأسلوب الباحث، على أن يشير في الحاشية إلى المصدر مسبوقاً بكلمة أنظر.

وثانيهما: أن يقتبس الفكرة وأسلوب الكاتب معاً، وعليه في هذه الحالة أن يشير إلى المصدر مباشرة، مع ضرورة الانتباه إلى أن الاقتباس الملتحم بالبحث مقيد بمقطع محدّد لا يزيد عن ستة أسطر موضوعة بين علامتي التنصيص، فإذا زاد النقل الحرفي عن ذلك كتبه بخط أصغر، وهوامش جانبية أكبر من هوامش البحث[1].

7 - المراجعة: -

ويراد منها تصحيح وتنقيح الصياغة، وملاحظة ترتيب الأفكار الجزئية، وإحكام الربط بينها في المواضع التي تحتاج إلى ذلك، ويمكن في هذه المراجعة أن يُضاف أو يُحذف ما يستدعي الاضافة أو الحذف.

8 - إعداد النسخة النهائية: -

هذه الخطوة النهائية من رحلة إعداد البحث، ويقصد بها تبييض المادة العلمية بعد تنقيحها ومراجعتها، وإلحاق فهارسها بالأرقام الصحيحة لمواضع الصفحات، وترتيب قائمة المصادر والمراجع المستخدمة في البحث، مع مراعاة

---

(1) انظر كيف تكتب بحثاً أو رسالة ص 100 منهج البحث في العلوم الإسلامية ص 127. Preparing The Research Paper: P.10 وفيه أن الاقتباس المسموح به ليكون جزءاً من البحث ويقع بين علامتي التنصيص لا يزيد عن خمسة أسطر.

تدوين معلومات النشر كاملة.

وبعد فهذه نظرات عجلى على موضوعات كبرى في ميدان البحث العلمي ومصادره، يستحق كل منها مبحثاً خاصاً به لتفصيل جوانبه وإغنائه بالأمثلة والبراهين. غير أن الحاجة دعت إلى مثل هذه الورقات الشاملة وإن كانت مختصرة لتجمع أبرز ملامح تلك الموضوعات مع الإجتزاء بأقل الأمثلة.

فقد تناولت هذه الورقات تعريف البحث العلمي وجهود العلماء المسلمين فيه، ومنهجيته مع نظرة على محتويات المكتبة العربية من المفاتيح، ولمحة عن التفكير العلمي والبرهنة المنطقية، وفصل أخير عن خطوات البحث...

الحواشي والهوامش

يقصد بالحواشي تلك التعليقات التي يضعها الباحث في أطراف بحثه خارجة عن النص، لتوضيح نقطة أو للتعريف بعلم أو بلد أو ما إلى ذلك مما يرى في بسطه ضمن النص الأصلي خروجاً عن موضوعه واستطراداً لا يمكن إيراده في غير الحاشية.

ومع ذلك فلا بد أن يكون لما يُكتب في الحاشية صلة ما بما يرد في المتن، وأن يكون مختصراً بحيث لا يُثقل الأصل ويشتت ذهن القارىء.

أما الهوامش فتوضع للإشارة إلى المصادر والمراجع وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وغيرها، ومن الكتاب من يفضل كتابة الهوامش في صلب البحث ومنهم من يفضلها في حاشيته، في حين يرى غيرهم أن تكتب في آخر البحث مسلسلة بأرقام من أولها إلى آخرها.

وتكمن أهمية الهوامش فيما يلي: -

1 - توثيق المادة العلمية بمصادرها ومراجعها التي تعد براهين الكاتب على ما يقدمه من معلومات وحقائق، وبذلك يثق القارىء في صحة النقول، ويمكنه التأكد بالرجوع إلى أصولها المذكورة.

ويحرص الناقل على الدقة لأنه أعطى مفتاح المراجعة للنقاد من بعده، فلا

ينقل إلاَّ صحيحاً، ولا يتصرف بما يخل بالأصل.

ولا يكفي أن يشار إلى المصدر بذكر صاحبه، في صلب البحث؛ لأن ذلك لا يقود إلى موضع الأخذ بسهولة، ولذا وجبت الإشارة إلى معلومات النشر كاملة وإلى المجلد والصفحة، وبعضهم يشير إلى السطر أيضاً لتكون الإشارة دقيقة مساعدة على التتبع والاستفادة الموسعة.

2 - وتكمن أهمية الهوامش أيضاً في أنها دليل على الأمانة العلمية، حيث تنسب الآراء والمعلومات إلى أصحابها إذ لا يجوز للكاتب أن ينسب إليه من الأفكار ما اجتهد غيره في تحصيله ووصل إليه بعد بحث وتنقيب، ولا يُقبل في ذلك الزعم بتوارد الخواطر أو وقوع الحافر على الحافر. وعلى الباحث أن يكون على صلة بمن كتب قبله في موضوعه وأن يشير إليه متى تطابق ما يورده مع آراء ذلك المتقدم.

3 - الفائدة الثالثة لإيراد الهوامش هي إفادة القارىء مرتين، أولاً بالمعلومات الجديدة التي يحتويها البحث وثانياً بمصادرها الوثيقة، وبذلك يمكنه توسيع دراساته حولها، ولربما كانت هذه الفائدة الأخيرة أهم في نظر الباحثين من الأولى لاهتمامهم بتوسيع معارفهم حول النقطة المثارة بواسطة الاطلاع على أكبر قدر من مصادرها المذكورة في الهوامش.

4 - وتخفف الهوامش من الأثقال على النص الأصلي بالمعلومات الإضافية التي ينبغي وضعها في الهوامش لعلاقتها بالنص، ولكنها لا تعتبر جزءاً من بنائه الفكري وتسلسله المنطقي.

تحقيق المخطوطات

تطلق المخطوطات فيراد منها ما بقي من التراث الإنساني مدوناً بالكتابة اليدوية على اختلاف لغاتها، ويراد بتحقيقها كلّ ما يتعلق بالعناية العلمية بها من توثيق نسبتها إلى مؤلفيها، والتثبت من صحة عناوينها، وملاحظة ما عسى أن يكون دخيلاً على متنها أو ناقصاً منه، ومقابلة نسخها، وتخريج اقتباساتها.

ويمكن أن نقول في كلمة جامعة، إن العناية العلمية بالمخطوطات تعني إخراجها إلى القارىء في أقرب صورة ممكنة من أصلها الذي كتبه المؤلف إذا لم يمكن وضعها في صورة مطابقة لذلك.

وهذا يعني أن التحقيق يشمل الأمور التالية: ـ

1 - التَّعرُّف على الورق والخط:

من حيث العمر والنوع والاختلافات بين أول المخطوط وآخره ووسطه، وتعليل ذلك، والتعرف على المداد وتغُيراته والناسخ وتاريخ النسخ ومكانه.

2 - تحقيق العنوان:

وهو أمر جدير بالعناية، ولا يجوز للمحقق أن يعتمد فيه اعتماداً كلياً على ما يوجد في ظهر المخطوطة من كتابة لا مصداق لها بداخلها؛ فقد يكون

الغلاف لكتاب آخر وضعت المخطوطة بين دفتيه، أو يكون وضع العنوان تصرف اجتهادي من قبل ناسخ جاهل بذلك العنوان، أو ما إلى ذلك من الأسباب.

ويعتمد المحقق في تحقيق العنوان على:

(أ) فهارس الكتب.

(ب) تراجم المؤلف.

(جـ) متن المخطوطة.

(د) المصادر والمراجع التالية لعصر المؤلف أو المعاصرة له.

3 - توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه: -

نسبت بعض المخطوطات إلى غير أصحابها لأسباب مختلفة ليس أكثرها بسوء القصد، كما قد يتوهم القارىء، إذ وجدت مخطوطات منسوبة لمتملكها لإثبات الملكية فقط، ولم يثبت إلى جانبه اسم المؤلف. ودفع تشابه العناوين أن ينسب بعض النساخ مخطوطات إلى غير أصحابها، إما لأنهم لم يجدوا اسم المؤلف على المخطوط، أو لاعتقادهم أن هذا العنوان ليس للمؤلف المثبت فينسبونه إلى من اشتهر بتأليف كتاب يحمل العنوان نفسه.

وعلى المحقق أن يمسك بالخيط الأول وهو اسم المؤلف المثبت على صفحة العنوان، ثم يتتبع المصادر التي ذكرت في تحقيق العنوان، ويتعرف على خصائص أسلوب المؤلف وطبيعة ثقافته، ومدى انطباق ذلك على عمله الذي بين يديه.

4 - تحقيق النص: -

يعمل المحقق على إخراج النص في صورة مطابقة أو مقارنة للأصل - كما تقدم - وهي مهمة تحتاج إلى الأمانة في نقل تلك الصورة دون زيادة أو

نقص، كما تحتاج إلى الدقة والمهارة اللتين تنتجهما الخبرة والتمرس؛ فقد يغير حرف أو حركة أو علامة ترقيم من سياق المعنى المراد فتعرض المحقق لزلل والمخطوط للتحريف والتصحيف.

وتلك الدقة تحتاج إلى صبر وتكاليف من الجهد والمال والوقت ينفقها المحقق في طلب نسخة ثانية أو في قراءة كلمة غاب وجه صواب قراءتها.

5 - هوامش التحقيق وحواشيه: -

حواشي التحقيق وهوامشها مهمة في التحقيقات الحديثة، على أن يراعى في وضعها عدم إثقال النص بذلك، فإن تخريج النصوص والإشارة إلى الاعلام والمعالم التاريخية والجغرافية وبعض التعليقات الموجزة أمر يساعد على إضاءة النص وتوضيحه.

كما تستخدم الهوامش لبيان اختلاف الروايات بين نسخ المخطوطة وإضافة المصادر والمراجع التي تزيد في وضوح معلومات النص أو الحواشي.

خطوات تحقيق النص: -

يسير المحقق في عمله وفق خطوات متعددة يمكن أن ينظمها على النمط التالي: -

(أ) اختيار المخطوط، مراعياً في ذلك عدم إنفاق الجهد في عمل سبق تحقيقه، ما لم يكن في إعادة التحقيق إضافة علمية مهمة.

(ب) جمع أصوله واختيار أوضحها وأَصَحِّها وأقربها إلى عصر المؤلف لتكون أصلاً تقابل عليه النسخ الأخرى.

(جـ) قراءة المخطوطة مراراً لمعرفة طبيعة رسم الناسخ للحروف في أول الكلمة وآخرها ووسطها، وطريقة رسمه الإملائي، إذ من النساخ من يمزج بين الرسم القرآني في كتابة الكلمات والرسم الإملائي ومنهم من يرسم كلمة «اذن» مثلاً بالنون ومنهم من يكتبها بالألف. وللنساخ مع ذلك رموز

وإشارات للإضافة أو التصحيح تتضح لقارئها بعد الممارسة.

(و) استنساخ الأصل بخط واضح وحروف متمايزة والكتابة على سطر بعد سطر، مع ترك فراغ قدر ثلث الصفحة في أسفلها يكفي لاستيعاب الهوامش والحواشي.

(هـ) الضبط: يجتزىءُ بعض المحققين بضبط مواضع اللبس حتى لا يحدث بكثرة الضبط إظلام للنص، ويرى غيره ضرورة الضبط الكامل معتبراً ذلك من تمام التحقيق، ولا اختلاف في ضرورة المحافظة على ضبط المخطوط الأصلي أو الإشارة إلى أخطائه إذا وقع فيه خطأ «فهذا الضبط له حرمته وأمانته وواجب المحقق أن يؤديه كما وجده في النسخة الأم»(١).

مكملات التحقيق: -

تشتمل مكملات التحقيق على الفهارس والملاحق، وقد حظيت الفهارس خاصة باهتمام المحدثين من المحققين، فأصبحت المخطوطات مزودة بفهارس الأعلام والبلدان والقوافي والموضوعات والمصطلحات. وقد سهل ذلك من الرجوع إلى محتويات المخطوطة دون عناء.

ما كتب في قواعد التحقيق:

هذه النبذة المتقدمة تفيد الطالب الجامعي ولكنها لا تغني الباحث المستزيد عن تفصيل قواعد التحقيق ولا تصله بمختلف وجهات النظر التي دونها الخبراء في هذا الشأن لذلك نحيله إلى المصادر التالية: -

1 - تحقيق النصوص ونشرها، لعبد السلام هارون مؤسسة الحلبي، القاهرة 1956.

2 - أصول نقد النصوص ونشر الكتب لبرجستراشر دار الكتب 1969.

3 - قواعد تحقيق المخطوطات، للدكتور صلاح الدين المنجد.

---

(١) قواعد تحقيق المخطوطات لعبد السلام هارون ص ٧٤.

4 - مقدمة في المنهج، للدكتورة عائشة عبد الرحمن، نشر معهد البحوث والدراسات العربية سنة 1971.

5 - محاضرات في تحقيق النصوص ومناهجه، للدكتور محمد رضوان الداية (مخطوطة تحتوي المحاضرات التي ألقاها الدكتور الداية ضمن الدورة التدريبية السادسة لدراسة شؤون المخطوطات العربية) ومنها استفدت التعرف على بعض المصادر المهمة في التحقيق.

6 - منهج تحقيق النصوص ونشرها للدكتورين نوى حمودي وسامي مكي.

7 - تحقيق التراث للدكتور عبد الهادي الفضلي، مكتبة العلم جدَّة 1982.

8 - ضبط النص والتعليق عليه للدكتور بشار معروف مؤسسة الرسالة 1982.

9 - البحث الأدبي للدكتور شوقي ضيف، الفصل الثالث طبعة دار المعارف.

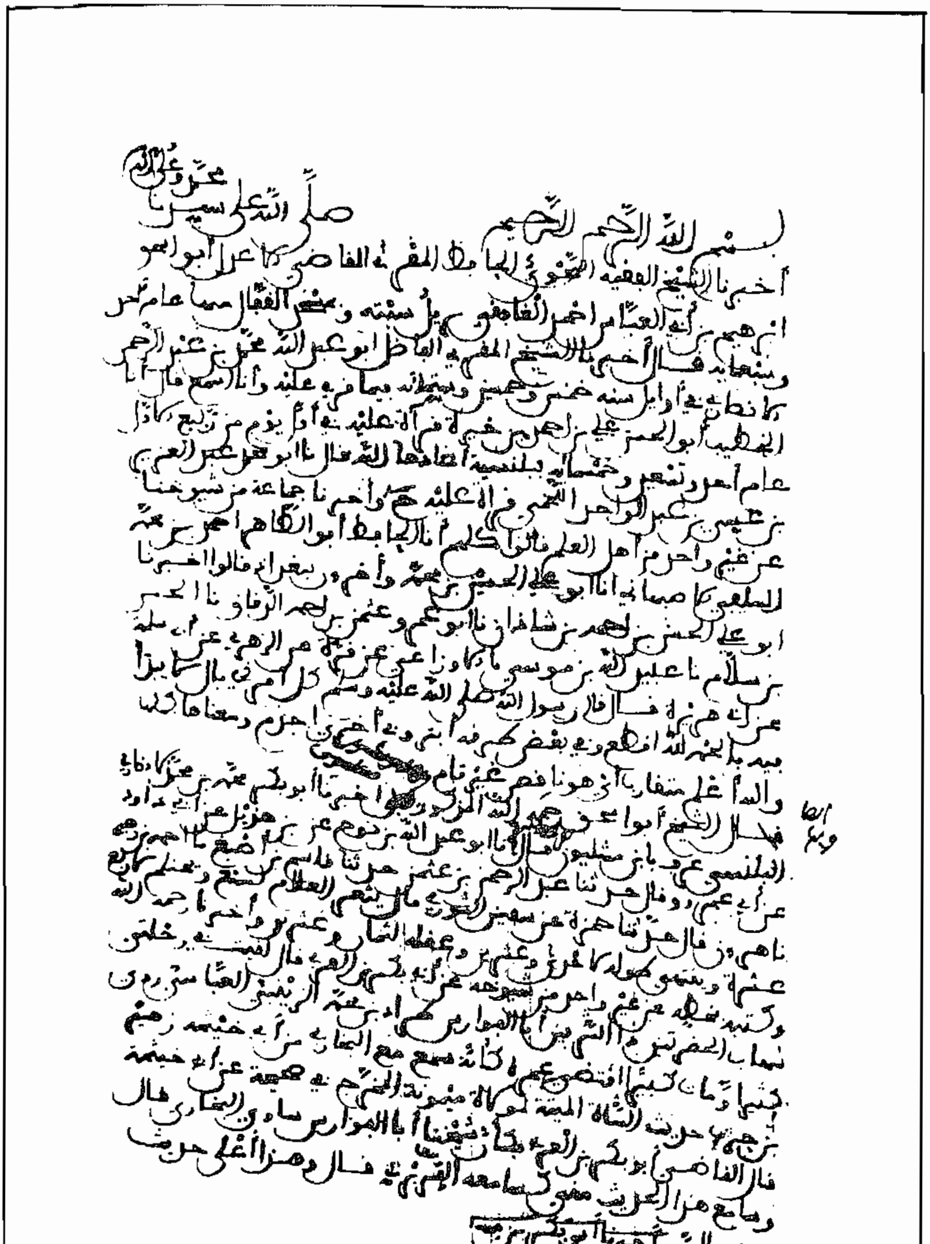
10 - مجلة الثقافة القاهرة 1944 وفيها مقال للدكتور محمد مندور حول نشر النصوص وتحقيقها.

11 - مجلة المورد (ج 6 سنة 1977) أمالي في فن التحقيق للدكتور مصطفى جواد.

12 - مجلة معهد المخطوطات العربية (م 1 ج 1: 1982) نظرة في تحقيق الكتب للدكتور أحمد مطلوب.

نماذج لبعض الخطوط العربية

توجد بعض الاختلافات في رسم الحروف وقواعد الاملاء بين المشرق والمغرب ترتب عليها وجود أنواع من الخط العربي متمايزة الأشكال، وعلى المحقق أن يكون على بينة منها، فمن ذلك الخط الأندلسي والمغربي والسوداني والصحراوي والمشرقي وتحته أنواع متعددة.


صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
بسم الله الرحمن الرحيم

أنموذج للخط الأندلسي

لئن نابك الايام عن حدثانها فانك في يهما ادهـرك معلم
لك العبران القلب واع وانما يبوح بما فيه اللسان المترجم

ومنه قولـــه

تدرعت قلبي جرأة وحزامة ومن يدرع قلبا من صنه الدرع
اري المقص كالراني في المواج والنوى فالفي لهي اخذ ولا ليدي منع

ومنه قولـــه يصف مصنعا عمله للمعتمد.

اقرن الغزالة ام معقل بكاد الجماد به يعقـــل
قرارته التربتين الطباية والفراعة البلـــل
تجمع افواهها في الصفا شيوفا تشبين النجمي يصقـل
ولست سبوفا ولكنها لنا لحي الثري منهل سلسـل
تشوق المياه بهن المياه كما شق في اللامة المنصـل
عماش للروض فياضة بها ترضع الارض ما تحمـل
ترضع اطفال اشجارها ضروع مشاغبها الجحفـل
يلي الحوض منه مثل الجنا الرذف مذبح الايطل
تلف الثري في ثرود الربيع اذا عزت الروضه الشمال
وفي صحن صفحه مجلس تروذ الملاظر به يعقـل
كأن تماثيل جدرانه علي من يقابلها تقبـل
كأن لعاليه روضة ومن من اسفله جدول
بنم سناه باستانه فنعلم عينك ما تجهـل

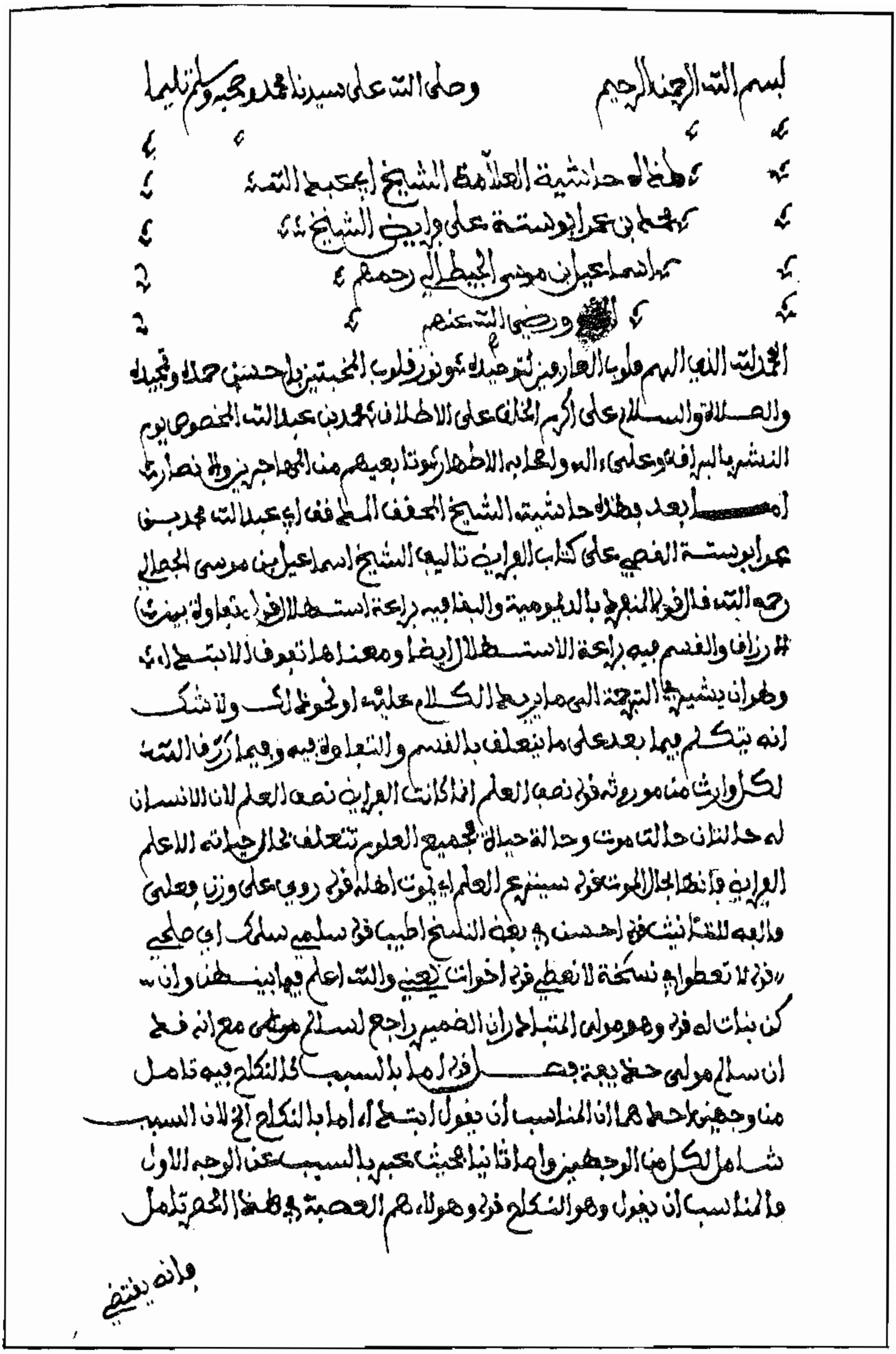
135

ومدرع في ماء لا كابدها آلعيون وللانهل
فلوان زهرته المجيز ما ورده وشدا البلبل

ومنهم عبدالله بن محمد بن سنان البكري الاندلسي الشنتمري الشاعر المشهور ابو محمد شاعر بحر اذا وعد وانيح اذا رعد وبحر البر اذا صمد نقوم بميزان الشعر اذا قعد وتشتق اجل العام ولو انه سمعه فذ لقعد ورب سانه شعاع الشمس فلا عز ولا فكله اذا ازهد اتو بنسبة البكري الي كرم النطاح فرمليه من ابائه او نازحه شان لمـــا نال الاعز ابائه وطلد من الشعر ما تختطفه الاسماع وتقتطفه عن الابداع ذكره ابن بسام وقال واولع بالقصار فطر لها امثالا وزين بها ابالا لاسيما قوافي كرر ها على من عصره وزين بها انوف اجيالهم وطلدها امثالا في اعقابهم ومال في شكوي زمانه ودل بها علي علو شانه حتي لو ان المنصور الثعالبي راه اوشم شيئا من نجاه لاعرب عن كثير ممن به اغرب كابن بكره وابن لنكك ومن سلك ذلك المسلك وكان منزل المجال زجل الانتقال لم يسعه مكان ولا اشتمل عليه سلطان وكان قصاراه شيخ الحضرات وبعد حصول في الي بعض البلاد فكان من خلع الملوك ما كان لوي الي اشبيليه اوحشر الامر القليل والكرامه مركا من سهيل وتلقى بالوزاره واستهاب وبها بمراقب ملوكها على كساد سوقها وخلو طريقها وفيـــها يقول

اما الوزاره فهي اتحرزهم اولهم اوثانها السنان

أنموذج الخط المشرقي



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم تسليما

هذه حاشية العلامة الشيخ أبي عبد الله

محمد بن عمر أبو ستة على فرائض الشيخ

إسماعيل بن موسى الجيطالي رحمهم

الله ورضي الله عنهم

الحمد لله الذي ألهم قلوب العارفين لتوحيده ونور قلوب المحبين بإحسان حمده وتمجيده
والصلاة والسلام على أكرم الخلق على الإطلاق محمد بن عبد الله المخصوص يوم
الحشر بالشفاعة وعلى آله وأصحابه الأطهار ومن تبعهم من المهاجرين والأنصار
أما بعد فهذه حاشية الشيخ المحقق المدقق أبي عبد الله محمد بن
عمر أبو ستة القصبي على كتاب الفرائض تأليف الشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي
رحمه الله قال في المنهج بالحمدلة والشهادة براعة استهلال قوله تناوله بيمين
ثم رزقا والقسم فيه براعة الاستهلال أيضا ومعناها أن يعرف الابتداء
وهو أن يشير في التوجيه إلى ما يريد الكلام عليه أو نحو ذلك ولا شك
أنه يتكلم فيما بعد على ما يتعلق بالقسم والتعاول فيه وفيما رزق الله
لكل وارث من موروثه قوله نصف العلم إنما كانت الفرائض نصف العلم لأن الإنسان
له حالتان حالة ممات وحالة حياة فجميع العلوم تتعلق بحال حياته إلا علم
الفرائض فإنها بحال الموت قوله سينزع العلم أي بموت أهله قوله روي على وزن فعلى
والبعه للتأنيث قوله أحسن في بعض النسخ أطيب قوله سلمى سلمك أي صلحى
قوله لا تعطوا في نسخة لا تعطي قوله أخوات يعني والله أعلم فيها بنسختين وإن
كن بنات له قوله وهو مولى المتبادر أن الضمير راجع لسالم مولى مع أنه فهم
أن سالم مولى حذيفة فصل قوله إما بالسبب أي النكاح فيه تأمل
من وجهين أحدهما أن المناسب أن يقول ابتداء إما بالنكاح إلخ لأن السبب
شامل لكل من الوجهين وأما ثانيا فحيث عبر بالسبب عن الوجه الأول
فالمناسب أن يقول وهو النكاح قوله وهؤلاء هم العصبة في هذا الحصر تأمل

فإنه يقتضي

أنموذج للخط المغربي

الكتابة
أساليبها وأنواعها

معالجة الكتابة النثرية عمل يحتاج إلى مران وثقافة أكثر من حاجته إلى قواعد ونظم محددة، على أن هذه الأخيرة تساعد دون ريب في تنسيق أفكار الكاتب وتحسين أساليبه الكتابية.

وسيجد القارىءُ في هذه العجالة تَصوُّراً لهيكل الموضوع النثري، وإشارة إلى أدوات الكتابة، وبياناً موجزاً لخصائص الأساليب والأفكار، وتذكيراً بأنواع الكتابة وطبيعة كل نوع منها.

وتبقى هذه النظرات أفكاراً مجردة إذا لم يحرص الطالب على تنفيذها في أعمال تطبيقية تحت إشراف أُستاذه وبهدي من توجيهاته الإضافية.

هيكل الموضوع النثري: -

كتابة موضوع نثري ما بحثاً كان أو مقالة أو رسالة أو غيرها يحتاج إلى نسيج معين يجعله في صورة موحدة ومتناسقة ولذا كان تخطيط الهيكل العام للبحث على درجة كبيرة من الأهمية باعتباره يضع الحدود الرئيسة للموضوع فيما يشبه وضع خارطة تحتوي على المعالم الأساس لأي هيكل معماري.

ومثلما يتكون البناء من أحجار متجاورة ومتناسقة ثم من جدران محصورة بين الأعمدة يتكون الموضوع من ألفاظ مختارة وجمل متناسقة وفقرات وفصول.

أولاً الألفاظ: ـ

فالألفاظ هي الوحدات الصغرى في العمل التأليفي المتكامل، وهو لا يصلح إلا إذا روعيت في وحداته شروط الاختيار الجيد ومنها:

1 - الوضوح:

فالكلمات الغامضة، أو تلك التي تضع ضبابية بين المتلقى والمعنى المراد يحسن بالكاتب أن يبتعد عنها لأنها تُعرِّض الأفكار لخطر سوء الفهم، وربما صرفت القارىء عن متابعتها.

إن اللفظة الجيدة هي التي تجعل الذهن يقفز إلى معناها مباشرة دون احتمالات أو ظنون، والمباشرة في المنهج العلمي للكتابة تختلف عن المباشرة المقوتة في تناول الموضوعات التوجيهية والأنواع الأدبية كما لا يخفى. وعلى ذلك فالوضوح يتطلب مجانبة الألفاظ الضعيفة والمعقدة والغامضة، وكذلك المصطلحات العلمية غير المنتشرة ما لم يوضحها الكاتب في هامش موضوعه.

ولا بد من التذكير بأن وضوح الفكرة وترتيبها ونضجها في ذهن الكاتب يساعده في اختيار الكلمات الواضحة والمؤهلة لتقديمها في صورة جيدة.

2 - الدقة: ـ

هذه النقطة وثيقة الصلة بسابقتها ولكنها غيرها في الواقع، فقد تكون الكلمة واضحة المعنى وغير معبرة بدقة عن المعنى المراد. ويُخشى في هذا الصدد من سوء استعمال الألفاظ القريبة المعنى مع وجود فروق قليلة بينها كالترادفات والمشتركات اللفظة والمصطلحات المستعملة في العلوم بمعانٍ مختلفة تخرجها عن معناها الأصيل، والكلمات ذات المعاني العامة غير المحددة.

3 - التأثير والحيوية: ـ

ليست كل الألفاظ وإن تطابقت معانيها بمتساوية في تأثيرها على المتلقى،

فهي تختلف في إيحاءاتها ورقتها أو جزالتها، واستعمالاتها المستحسنة أو المرفوضة اجتماعياً أو سياسياً أو علمياً، فمن الألفاظ المبتذل والبالي والركيك، ومنها الكلمات ذات الدلالات المحسوسة والمجردة والمركزية والهامشية وغيرها. والكاتب المجيد هو الذي يختار لموضوعه ما يمنحه التأثير والحيوية ويجنبه التعقيد والرتابة.

ثانياً الجمل: -

أما الجمل فلا تقل أهمية عن الألفاظ، ولقد كان أبرز الكتاب العرب القدامى وهو الجاحظ يولي بالغ الاهتمام بالتراكيب ويعتني بها عناية خاصة[1] فالعناية بالتركيب تعني حسن صياغتها والاهتمام بالأساليب البلاغية منها وحفظها من الأخطاء النحوية، واجتناب الضعف الناتج عن التفكك أو كثرة الإضافات، والفصل الطويل بين أجزاء الجملة، والرتابة والسرد، والأخطاء البنائية الشائعة والدخيلة، ولكل هذه العيوب أمثلة يطول ذكرها. أما علاجها فيتم عن طريق مطالعة النماذج الممتازة من النثر الفني والبحوث العلمية، وبمراجعة وتنقيح المادة المكتوبة، وتنويع أساليبها، والإلمام الكافي بالقواعد العربية.

والاهتمام بالجمل لا يعني أن يقف الكاتب عند كل جملة فيعيد فيها النظر حتى يتأكد من سلامتها ثم ينتقل إلى غيرها، بل إن المطلوب عكس ذلك تماماً، أي أن يدون أفكاره بصورة عامة في جمل مترابطة حتى ينتهي منها، ثم يعود إلى مراجعة الجمل وتنقيحها وتصحيحها.

وعلى الكاتب أن يراعي إتمام الجملة بما يجعل السكوت على نهايتها حسناً ومتوازناً مع الجمل الأخرى، إذ ليس تمام الجملة مقتصراً على سلامتها اللغوية ولكنه يتطلب التناسق بين جمل الموضوع كلها، وإحكام نسجها وتنويع أساليبها.

---

(1) الجاحظ:

ثالثاً الفقرات: -

والفقرة هي المقطع ذو الفكرة الرئيسية الواحدة الموضَّحة بالأمثلة أو الإحصائيات، والمؤيدة بالتعليلات والبراهين. وتحتوي كل فقرة على جملة رئيسة تمثل الفكرة العامة للفقرة ومجموعة من الجمل الجزئية المفسرة أو المبرهنة المتصلة بها اتصالاً وثيقاً.

ويجب عند كتابة كل فقرة جديدة أن يبدأ السطر الأول منها - خلافاً لبقية أسطرها - بفراغ يقدر بخمس مسافات للآلة الكاتبة، أو بموضع إبهام متوسط الحجم في الورق المتداول وتكون المسافة بين الفقرات أوسع نسبياً من تلك التي تفصل بين الأسطر في الفقرة الواحدة، وهو ما يكفل للموضوع الإضاءة وحسن التقسيم.

رابعاً الفصول: -

إذا كانت البداية في تخطيط هيكل البحث تنطلق من اختيار الموضوع العام ثم تقسيمه إلى فصول، وتقسيم الفصول إلى فقرات، والفقرات إلى جمل جزئية مفسرة أو مبرهنة، في ألفاظ مختارة اختياراً جيداً لتأدية المضامين المطلوبة فإن العمل الكتابي يبدأ عكسياً من الكلمة وينتهي بأكبر قسم من أقسام البحث وهو المسمى فصلاً أو قسماً أو باباً أو ما إلى ذلك من التسميات.

وأول ما يراعي في تأليف الفصول هو المنطقية أو المنهجية في الانتقال بين أجزاء الفصل الداخلية أو بين الفصول ذاتها، أي أن الانتقال يجب أن يكون متدرجاً ومترابطاً، بحيث تُسلم كل فكرة إلى الفكرة التالية، ويمهد كل فصل لتابعه، ليكون العمل أشبه بمقدمات منطقية تُسْلِمُ كل فكرة إلى الأخرى وتنتهي جميعها بنتيجة سليمة ومقنعة.

والمنطقية في صورتها هذه تغنينا عن نقطة مهمة يلح عليها المنهجيون، وهي وحدة العمل الفكري وتماسكه وتجنبنا عيباً طالما حذروا منه وهو الاستطراد والتوسع أو الاختصار المخل.

ويتصل بذلك أن تكون نظرة الكاتب إلى موضوعه شمولية، فلا يركز على نقطة دون أخرى، ولا يغفل عن جزئية يُعَدُّ حذفها نقصاً في هيكل البحث.

وعلى الكاتب أن يراعي التوازن في حجم الفصول، فلا يجعل بعضها في مئات الصفحات وبعضها الآخر في صفحات قليلة، على أن ذلك لا يعني التطابق المتعسف في تحديد أحجام الفصول، إذ من الطبيعي أن تختلف فيما بينها بعض الاختلاف نتيجة لتباين حاجات أفكارها إلى المادة اللغوية أو إلى التفاصيل والأمثلة.

عيوب الفقرات والفصول: -

تشترك الفقرات والفصول في عيوب متعددة قد يتعرض لها الكاتب، ومنها: -

1 - الاستطراد، وهو الخروج من تسلسل أفكار الفقرة أو الفصل إلى موضوعات خارجية، بداع من دواعي التشابه بينها وبين قضايا موضوعه الأصلي، فالحديث شجون ولكن المنهجية ومخططاتها تضع له حدوداً لا يتجاوزها.

2 - سوء البرهنة على أفكار النص، وهو أن يقع الباحث أثناء البرهنة على قضايا موضوعه في أخطاء التفكير التي تناولها موضوع التفكير العلمي.

3 - الخلل في التركيب اللغوي وسوء اختيار الألفاظ ينعكس سلبياً على الفقرات والفصول، ويحسب في عيوبها.

4 - **عدم التوازن**: وهو أن يكون بعض الفقرات والفصول طويلاً جداً، ويكون غيرها قصيراً جداً. ولا عبرة في ذلك بالاختلافات اليسيرة التي قد يُسببها تفاوت الأفكار وحاجتها إلى الاستيفاء.

5 - **الاضطراب في ترتيب الأفكار**: وهو أن يختل النظام المنطقي في ترتيب

الفقرات والفصول وتنسيقها بحيث يقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم.

وسائل الكتابة: -

تتألف المادة العلمية من عنصرين مهمين هما الفكرة والأسلوب، ويعتمد نجاحهما في التوصيل الجيد إلى القارىء على سلامة وسائل الكتابة والمهارة في استخدامها، فهي المواد الأولية الضرورية لوضع الفكرة في هيكل مناسب وإطار جذاب.

1 - وأول هذه الوسائل هو الرصيد اللغوي الحاصل من تنامي ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه المعرفي، فبقدر اتساع ذلك الاطلاع وعمقه، وبقدر استيعاب الكاتب وتمثله له يكون تمكنه من تطويع رصيده اللغوي لمعانيه وأفكاره.

وينصح الكاتب الناشىء بتنويع قراءاته بين أساليب الكتاب على اختلاف مشار بهم، وأن يتدرج في ذلك بحسب قدرته على الفهم، وميوله الذاتية في اختيار المادة المقروءة، وقد كان بعض الأساتذة يختار لتنمية أسلوب طلابه كتب المنفلوطي، فوحي الرسالة للزيات، ثم وحي القلم للرافعي، ويترك لهم حرية الاختيار بعد ذلك.

ويرى المرحوم شكري فيصل ـ في محاضرات أملاها على طلاب الدراسة العليا بجامعة الفاتح ـ أن الطالب الجامعي في حاجة إلى ترميم ثقافته العربية وذلك بقراءة كتاب قديم وآخر حديث في كل تخصصات العلوم العربية والإسلامية، ووجه طلاب الأدب إلى قراءة العُمدة لابن رشيق نموذجاً للمنهجية القديمة في البحث الأدبي، وفي الحديث إلى تاريخ الأدب العربي لطه حسين.

كما وجه طالب اللغة إلى دراسة المزهر للسيوطي نموذجاً للكتاب القديم وإلى دراسة بعض الأبحاث اللغوية واللسانية المعاصرة نموذجاً لمنهجية

المحدثين، وهكذا فعل في توجيه طالب الدراسات الإسلامية.

على أنه وجه الجميع إلى قراءة سلسلة الإسلام لأحمد أمين ونبههم إلى ضرورة مراعاة تأثره بأحكام المستشرقين غير المسلّمة، وأكد أن الطالب الذي يمتلك عقلاً ناقداً وثقافة أصيلة لا تختلط عليه الأمور، ولا تخفى عليه مواطن الزلل ومواضع اليقين.

2 - الوسيلة الثانية هي القواعد العربية التي ينبغي أن يكون الكاتب ملماً بها، ولا يعني ذلك أن ينكب على أمهات الكتب المتخصصة، ويصرف الجهود المضنية للتعمق في تفاصيلها مثلما يفعل المتخصصون، ولكن المهم أن يتعرف على القواعد العامة وأن يتمكن من تطبيقها بيسر ومهارة حتى يُصبح استعمالها سليقة في بيانه المكتوب والمنطوق.

3 - والوسيلة الثالثة هي الإلمام بقواعد الإملاء والقدرة على الكتابة بخط واضح، ولا غنى للكاتب عن ذلك، ولا ينبغي أن يخرج من دراستهما في أي مرحلة من مراحل عمره، إذ هما ضروريتان لجعل أفكاره واضحة مقبولة.

ويحذر الكاتب بالخصوص مما قد يظنه من صغائر الأخطاء مثل إغفال همزات القطع، والخلط بينها وبين همزات الوصل، وإهمال الحروف المعجمة وإعجام المهملة. وغيرها من الأخطاء التي يمكن تداركها بقليل من العناية ويقبح بالكاتب أن يجريها على لسانه وقلمه، فينطبق عليه قول القائل:

فلم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

4 - والوسيلة الرابعة من وسائل الكتابة الصحيحة هي حسن استخدام علامات الترقيم، ومعرفة مواضعها، والانتباه إلى دلالاتها، وهو مبحث حديث لكنه يتصل في علوم العربية بموضوع الوقف والفصل والوصل والاستفهام والتعجب وغيرها من الأساليب العربية.

علامات الترقيم هي: -

1 - الفاصلة (،) ويؤتى بها للفصل بين الجمل المترابطة والمفردات المتعاطفة، وبعد القسم، والمنادى، وأكثر معلومات النشر في الهوامش.

2 - الشارحة (:) وتوضع بعد لفظ القول، ولبيان الأنواع، ولتفسير المبهمات بالأمثلة وما شابهها.

3 - الفاصلة المنقوطة (؛) وتفصل بين الجمل ذات الصلة السببية.

4 - علامة الاستفهام (؟) وتستعمل لغرض الاستفهام أو الشك.

5 - علامة التعجب (!) وتستعمل للعتبير عن التعجب أو غيره من الانفعالات المختلفة، وقد يؤتى بها للشك فيما كتب قبلها.

6 - الشرطتان (- -) ويؤتى بهما لاحتواء الجمل الاعتراضية).

7 - علامتا التنصيص (« ») وتحتويان على النص الحرفي المقتبس.

8 - القوسان ( ) ويستعملان لضم الأرقام أو الكلمات المفسرة.

9 - علامة الحذف (. . .) وتكتب للتنبيه عن وجود حذف من الأصل.

10 - الشرطة (-) وترسم بعد الأرقام والحروف إذا كانت عناوين جانبية.

11 - القوسان المركنان [ ] ويضمان الكلمات أو الجمل التي أضافها الكاتب على نص لغيره، وكثيراً ما يستخدمها المحققون لإضافة عبارة مكملة للمعنى وغير مثبتة في الأصل.

أنواع الكتابة: -

تتفرع الكتابة النثرية إلى أنواع كثيرة لكل منها طابعها وأصولها الخاصة، فكاتب البرقية مثلاً يضع في اعتباره الاختصار والتركيز الشديدين، بخلاف كاتب الرسالة أو الرواية، وكاتب البحث العلمي يهتم بالدقة والتوثيق فيما يتناوله من الحقائق الثابتة، بخلاف كاتب القصة التي قد لا تمت إلى الحقيقة

بسبب، ولكنها تستمد أحداثها من وحي الخيال وترتيب العقل.

لذلك وجب الوقوف السريع عند طائفة من أنواع النثر الفني للتعرف على شيء من صفاتها وخصائصها:

1 - الرسالة:

تطلق الرسالة فتنصرف إلى الخطاب المرسل في غرض إخواني أو رسمي، للتبليغ الابتدائي أو للرد على خطاب سابق، كما أن من المواد العلمية والأدبية المختصرة في التراث العربي ما يسمى بالرسائل لاشتراكها معها في الإيجاز والاختصار أو لكونها مرسلة من شخص إلى آخر أو للسببين معاً.

وتتكون الرسالة غالباً من مقدمة ووسط وخاتمة، تشتمل المقدمة عادة على التحية حين يتضمن الوسط غرض المراسلة، وتختم بلفظ السلام أو ما إلى ذلك من عبارات الوداع.

وتحرص الرسائل الرسمية المتضمنة لشأن من شؤون الدولة على الوضوح واستيفاء المعلومات أكثر من حرصها على أناقة التعبير، وتتميز بتنظيم الأفكار المراد تبليغها إلى المرسل إليه في وضوح ومنطقية. بل إن الرسائل الرسمية في التراث العربي كانت تجمع بين هذه الخصائص والأناقة في العبير لاستعانة دواوين الدولة بالكتاب المهرة عبر التاريخ الإسلامي أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والفضل بن سهل وعمرو بن مسعدة والصاحب بن عباد وابن أبي الخصال وابن الخطيب وغيرهم وهم كُثُر.

أما الرسائل الشخصية فيرسل فيها الكاتب قَلَمَهُ معبراً عن خطرات نفسه وحنايا وجدانه، دون ضوابط صارمة أو خصائص ملزمة، وهي عادة محل إظهار الأناقة في التعبير وسبحات الخيال، وقد جعلت هذه المندوحة الواسعة مجال الاختلاف كبيراً بين الرسائل الإخوانية، فمنها المختصر والمطول، والأنيق والمهمل، والمنظم والمشوش. لكن الرسائل القيمة هي تلك التي تحتوي على قدر من الخصائص الفنية يجعلها جديرة بالاطلاع والاحتذاء.

2 - المقال:

هو مادة علمية أو أدبية تحتوي على فكرة عامة محدودة تمثل جانباً من موضوع واسع. ويتميز بميله إلى الموضوعية والإيجاز، ويستعين كاتبه في تحقيق أهدافه بالتحليل والبرهنة العقلية والتنظيم المنطقي، ويتجنب الإطناب والمبالغة والتهويل الخطابي وعيوب التفكير السقيم.

وقد يكون المقال أقل ميلاً إلى الموضوعية وأكثر إفساحاً لاندفاع العواطف والانفعالات، ويسترسل مع الأفكار أنى توجهت، فيكون المقال بهذه الصورة خاطرة من خواطر الذهن ومنها يستمد اسمه وخصائصه، وفي مكتبتنا العربية فيضاً من هذه الخواطر، يمكن للطلاب أن يعودوا إليه، ويتبينوا خصائصه من خلال التحليل والنقد.

3 - القصة: -

هي نوع من أنواع الإبداع الفني يعتمد على اقتطاع حوادث واقعية أو خيالية من حياة الناس وصوغها في نص جذاب، ويتطلب مهارة في الوصف والتحليل والحوار، ورحابة في الخيال، وقدرة على الصياغة الفنية، وموهبة مصقولة بسعة الاطلاع وقوة الملاحظة.

4 - ورقة البحث: -

يكلف الطلاب في ورقة البحث بالكتابة في موضوع محدد يختاره أستاذهم، وربما أشركهم في اختياره، ويكون عليهم أن يتابعوا العمل من نقطة الاختيار هذه وفق خطوات معينة.

ويعرفها بعضهم بأنها ملخص لما كتبه آخرون في الموضوع المعطى[1] ولذلك فالمطلوب هو استعمال المعلومات المتوفرة أكثر من إضافة شيء جديد، ولكنها تمنح الطالب فرصة لظهور قدرته على التعبير وأحكامه حول المعلومات المجموعة، ومهارته في الترتيب والتنسيق. وفي كل الأحوال فإن المفضل في

اختيار الموضوع أن يكون ضيقاً بحيث يمكن أن يحيط به الطالب وأن يتيسر من خلاله التدريب الصحيح على طرق البحث ومناهجه.

وفي مثل هذه الورقة يتجه الطالب إلى مراجع محددة فيدوِّن أسماءها في بطاقات يضمنها بالإضافة إلى ذلك معلومات النشر كاملة. ثم تأتي مرحلة أخذ الملاحظات، وفيها تسجل اختصارات للأفكار التي تهم الباحث وتتضمن الجديد عن دائرة معارفه، ثم تصاغ في أسلوبه الخاص.

فإذا اضطر الباحث إلى نقل عبارة المؤلف بنصها وضعها بين علامتي تنصيص مشيراً إلى رقم الصفحة التي نقل عنها. ويفضل استعمال بطاقة لكل مصدر، والكتابة على وجه واحد منها.

بعد جمع المادة توضع عناوين رئيسة لاقسام الموضوع بحسب توفر المادة العلمية لتغطية الأقسام المقترحة ثـم تصاغ أفكارها بأسلوب الباحث مع ضرورة الاهتمام بهوامش الورقة التي تشير إلى المصادر والملاحظات أوالتنبهات التي لا تعتبر جزءاً أصيلاً من أجزاء البحث وإن كان وجودها في الهامش ضرورياً للتوثيق أو للتوضيح.

وأخيراً فإن ورقة البحث تدريب أوَلي يمهد لكتابة البحث الكامل، ويفضل أن يتدرب عليها الطالب في مرحلة ما قبل الجامعة.

٥ ـ التقرير الوظيفي:

التقرير الوظيفي هو عرض تفصيلي لموضوع يتعلق بشؤون الجهة التي أُعـد من أجلها، ويتضمن حقـائق وبيانـات أو إحصائيـات تهدف إلى إحـاطة قـارئه بمجريات العمل في المؤسسة التي قدم منها التقرير أو في جانب من جوانب عملها.

ويتطلب ذلك أمرين، أولهما: إعطاء صورة واضحـة عن موضـوع العرض.

ثانيها: إلمام بجميع عناصر الموضوع بحيث لا يقع المتتبع للتقرير على غوامض تقوده إلى تفسيرات مختلفة أو تخمينات بعيدة عن الحقيقة.

ويحتاج الأمر الأول من كاتب التقرير إلى اختيار لغة سهلة ودقيقة وأسلوب مباشر مطابق لظاهر الحال، وأفكار واضحة ومرتبة. أما الأمر الثاني فيحتاج منه إلى الإلمام الكامل بجزئيات الموضوع والوقوف الشخصي على صحة ما فيه من معلومات وإحصائيات حتى يوفر لتقريره حظاً أوفى من الأمانة العلمية.

الأفكار والإساليب:

الأفكار هي لب الموضوع وثمرته التي يهدف الكاتب إلى توصيلها من خلال عمله العلمي، وليست الأساليب والوسائل إلاَّ الأطباق التي تساعده على تقديمها إلى المتلقى في عرض مقبول. وتنبغي العناية في تناول هذه الأفكار بما يحقق جودة التوصيل بين الطرفين، وأبرز مظاهر تلك العناية ما يلي: -

1 - إيجاد رؤية شاملة للموضوع المراد تناوله تساعد على نسج جزئياته في تناسق منهجي واضح، ويتم ذلك عن طريق القراءة المكثفة والنقدية لمصادر الموضوع المراد تناوله تساعد على نسج جزئياته في تناسق منهجي واضح، ويتم ذلك عن طريق القراءة المكثفة والنقدية لمصادر الموضوع وتجميع وتنظيم المادة اللازمة للبحث.

2 - تركيز الأفكار وتحديدها في نقاط تجنب الكاتب عيوب السرد الخطابي والتعبير الخطابي من الدقة والتسلسل. ويحذر في هذا الصدد من المبالغة أو التهوين إذ هما يبعدان بالفكرة عن حجمها الصحيح بقصد تعظيم الأمر أو التقليل من شأنه.

3 - عرض الأفكار عرضاً خالياً من تأثير الأراء السابقة وتأثير أَمَاني النفس ورغائبها، في أن يحقق البحث أغراضاً ذاتية قد تخالف الحقيقة، أو تركز

على بعض النتائج دون غيرها، أو التغاضي عما لا تحب. ويجب التنبيه في هذه النقطة إلى خطأ تجاهل أدلة الخصم إذا كان الموضوع يقتضي عرضها أو الرد عليها.

أما الأساليب فتتباين بتباين طبيعة الموضوع، فالموضوع العلمي يستلزم أسلوباً علمياً دقيقاً حين يتطلب الموضوع الأدبي أسلوباً أدبياً رفيعاً، ويجمع بعض الكتاب بين الأسلوبين معاً لجعل موضوعاتهم العلمية الجافة محل قبول القراء غير المتخصصين، ولكل من هذه الأساليب مجالاتها وخصائصها المميزة.

1 - فالأسلوب العلمي يتميز بالدقة والوضوح والتفصيل، وكاتبه يحرص على مطابقة العبارة للمعنى المراد ويتصف بالحيدة التامة، ويحرص على عرض موضوعه في عبارات صحيحة لغوياً خالية من التعقيد، مستمدة تأثيرها من الحقائق المجردة.

ويستخدم الكاتب في هذا الأسلوب ما يخص موضوعه من المصطلحات العلمية والمفردات الدقيقة، ويتوخى المنهجية السليمة في تناوله لجوانب موضوعه.

2 - أما الأسلوب الأدبي فيعبر عن مشاعر وأخيلة صاحبه تجاه موضوع العمل الأدبي، واضعاً ذلك في إطار فني ممتاز قوامه الألفاظ المختارة والصور البليغة والتراكيب المحكمة.

وفي هذا الأسلوب تظهر شخصية الأديب وثقافته، وتنعكس على سطور كتابته ميوله ورغباته وانفعالاته وأهدافه في التأثير على القارىء، عن طريق التحسين أو التشويه الناتج عن استخدام القدرة البيانية استخداماً معيناً:

تقول هذا مُجاجِ النحل تمدحه وإن تعبْ قلتَ ذَا قَيُّ الزنابير
مدحاً وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

3 - والأسلوب الثالث هو ما يمكن أن نسميه بالأسلوب العلمي المتأدب، لأنه يضع الحقائق العلمية في ثوب أدبي أنيق، ونجده عادة في المجلات العلمية ذات الصلة بالجمهور العريض من القراء، وفي تيسير العلوم البحتة لتكون في متناول ذوي الثقافات الأخرى.

نماذج من فن الكتابة النثرية

— 1 —

من آيات الله البينات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذْ قَالَ اللَّهُ يـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتخِذُوني وأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ من دُونِ اللَّهِ قال سُبْحَـٰنَكَ ما يكُونُ لِيَ أن أقُولَ مَا لَيْسَ لي بِحقٍّ إن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسِي ولا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إنك أنت عَـلَّامُ الغُيُوبِ (16) ما قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ما أَمَرْتَني بِهِ ءَأَنِ آعبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فلمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهم وأنْت عَلَى كلِّ شَيءٍ شَهِيد (117)﴾.

(صدق الله العظيم)

— 2 —

الرسالة الجدية
لابن زيدون

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وِدَادِي لَهُ واعْتِمَادِي عَلَيْهِ واعْتِدَادِي بِهِ ومَنْ

أبْقَاهُ اللَّهُ مَاضيَ حَدّ الْعَزْمِ وارِيَ زَنْدِ الأَمَلِ ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ إِذَا سَلَبْتَنِي أعَزَّكَ اللَّهُ لِبَاسَ إِنْعَامِكَ وعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلَى إينَاسِكَ وأظْمَاتَني إِلَى بَرُودِ إِسْعَافِكَ وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ وَغَضَضْتَ عَنِّي طَرْفَ حِمَايَتِك بَعْدَ أنْ نَظَرَ الأعْمَى إِلَى تَأمِيلِي لَكَ وَسَمِعَ الأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ وَأَحَسَّ الجَمَادُ باسْتِنَادِي إِلَيْكَ فَلاَ غَرْوَ فقَدْ يَغَصُّ الْمَاءُ شَارِبَهُ ويَقْتُلُ الدَّواءَ المُسْتَشْفِيَ بِهِ ويؤتَى الحَذِرُ مِنْ مأمَنِهِ وتَكُونُ مِنِيَّةُ المُتَمَنِّي فِي أمْنِيَّتِهِ والحَيْنُ قَدْ يَسْبقُ جُهْدَ الحَرِيصِ.

كُلُّ الْمصَائِب قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى   فَتَهُــونُ غَيْـرَ شَمَــاتَــةِ الحُسَّــادِ

وإنِّي لأتَجَلَّدُ وأُرِي الشَّامِتِينَ أنّى لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أتَضَعْضَعُ فأقول:

هَـلْ أنَا الاَّ يَـدٌ أدْمَاهَـا سِوارُهَـا   وجَـبِيــنٌ عَضَّ بِــهِ إِكْـمــلِيــلُهُ

ومَشْرَفِيٌّ ألْصَقَهُ بالأرضِ صَاقلُهُ وسَمْهَرِيٌّ عَرَضَهُ عَلَى النَّار مُثَقِّفُهُ وعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سيدُهُ مذْهَبَ الَّذِي يقولُ:

فَقَسَـا لِيَزْدَجِـرُوا ومَنْ يَكُ حَـازِماً   فَلْيَقسُ أحْيَــانــاً عَلَى مَنْ يَــرْحَـمُ

هَذَا الْعَتْبُ مَحمُودُ عَوَاقِبُهُ وهَذِهِ النَّبْوَةُ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِيَ وهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةُ صَيفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ.

وَلَنْ يُرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أنْ أبْطَأ سَحَابُهُ أوْ تَأخَّرَ غَيْرَ ضَنِينٍ غَنَاؤهُ فَابْطأُ. الدِّلاءَ فَيْضاً امْلؤُهَا وأثْقَلُ السَّحَاب مَشْياً أحْفَلُهَا وأنْفَعُ الحَيَا مَا صَادَفَ جَدْباً وألَذُّ الشَّرَابِ مَا أصَابَ غَلِيلاً ومَعَ اليَوْمِ غَدٌ ولِكُلّ أجَلٍ كِتَابٌ لَهُ الحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ وَلاَ عَتْبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ.

وَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِداً   فَـأفْعَـالُـهُ الـلاَّتي سَــرِرْنَ أُلُـوفُ

وَأعُودُ فأَقُولُ مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ وَالجَهْلُ الَّذِي لَمْ

يأتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ والتَّطاوُلُ الَّذي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ والتَّحامُلُ الَّذي لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ لاَ اخْلُو مِنْ أَنْ أكُونَ بَرِيئاً فأَيْنَ عَدْلُكَ أوْ مُسِيئاً فَأَيْنَ فَضْلُكَ.

إلاَّ يَكُنْ ذَنْبُ فَعَـدْلُـكَ وَاسِـعُ أوْ كَـانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ

حَنَـانَيْكَ قَـدْ بَلَغَ السَّيْلُ الـزُّبَى وَنَـالَنِي مَـا حَسْبِي بِـهِ وكَفَى[1]

وَمَا أرَانِي إلاَّ لَوْ أمِرْتُ بِالسُّجُودِ لآدَمَ فأبَيْتُ واسْتَكْبرْتُ وقالَ لِي نُوحٌ ارْكَبْ مَعَنَا فَقُلْتُ سَآوِي إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ وأمَرْتُ بِبِناءِ صَرْحٍ لَعَلّي أطَّلِعُ إلَى إلَهِ مُوسَى وَعَكَفْتُ عَلَى العِجْلِ وَاعْتَدَيْتُ فِي السَّبْتِ تَعَاطَيْتُ وفَعَقَرْتُ وشَرِبْتُ مِنَ النَّهَرِ الَّذي ابْتُلِيَ بِهِ جُيُوشُ طَالُوتَ وَقُدْتُ الْفِيلَ لأَبْرَهَةَ وعَاهَدْتُ قُرَيْشاً عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ وَتَأوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ وَنَفَرْتُ إلَى الْعِيرِ بِبَدْرٍ وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أحُدٍ وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلاَةِ الْعَصْرِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ وَجِئْتُ بِالإفْكِ عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقِيَّةِ وَأنِفْتُ مِنْ إمَارَةِ أُسَامَةَ وَزَعَمْتُ أنَّ خِلاَفَةَ أبِي بَكْرٍ كانَتْ فَلْتَةً وَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ وَمَزَّقْتُ الأدِيمَ الَّذي بَارَكَتْ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَضَحَّيْتُ بالأَشْمَطِ الَّذي عِنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ وبَذَلْتُ لِقَطَامٍ.

ثَـلاَثَـةَ آلاَفٍ وعَـبْـداً وَقَيْـنَـةً وضَرْبَ عَلِيٍّ بالحُسَامِ المُصَمَّمِ

وَكَتَبْتُ إلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ أنْ جَعْجِعْ بِالْحُسَينِ وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَني مِنْ وَقْعَةِ الحَرَّةِ.

لَيْتَ أشْيَـاخِي بِبَـدْرٍ شَهِـدُوا جَـزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْـعِ الآسَلِ

ورَجَمْتُ الْكَعْبَةَ وَصَلَبْتُ الْعَائِدَ عَلَى الثَّنِيَّةِ لَكَانَ فِيما جَرَى عَلَيَّ مَا يَحْتَمِلُ

---

(1) في نسخة بيت ثان وهو:

فهبني مسيئـاً كـالـذي قلت طـالبـاً قصـاصـاً فـأين الأخـذ يـا عـز بـالفضـل

أَنْ يكُونَ نَكَالاً وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى المَجَازِ عِقَاباً.

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِئٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إلاَّ نَميمةٌ أَهْدَاها كَاشِحٌ وَنَبَا جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ وهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاؤُونَ بِنَمِيمٍ وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْعُدَوا الْعَصَا وَالْغُوَاتُ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحاً والسُّعاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ الأَحْنَفُ ابْنُ قَيْسٍ فَقَالَ مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إلاّ مِنْهُمْ.

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُك لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللّهِ لِلمَرْءِ مَذْهَبُ

واللّهِ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَةِ وَلَا نصَبْتُ لَكَ بَعْدَ التَّشَيُّعِ فِيكَ وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمانٍ تَكَفَّلَتْ بِهِ الثِّقَةُ عَنْكَ وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ فَفِيمَ عَبَثَ الجَفَاءُ بَازمَّتي وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَواتِي وَتَمَكَّنَ الضَّياعُ مِنْ وَسَائِلِي وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبي وَأَكْدَتْ مَطَالِبي وَعَلامَ رَضِيتُ مِنَ المَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ بَلْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيابِ وَأَنَّى غَلَبَنِي المُغلَّبُ وَفَخَرَ عَلَيَّ الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِني قَبْلَ أَنْ افْتَرَسَ وَتَدْرُكُنِي وَلَمَّا أمُزَّقِ أمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ[1] جَوَانِحُ الأكفْاءِ حَسَداً لِي عَلى الخُصُوصِ بِكَ وَتَتَقَطَّعُ[2] أَنْفَاسُ النُّظراءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ وَقَدْ زانني اسْمُ خِدْمَتِكَ وَزهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ

أَلَسْتُ الْمَوالي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ هي الانْجُمُ اقْتادَت مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُما
ثَنَاءٌ يُظَنُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوِّراً ضُحًى وَيُخَالُ الْوَشْيُ فِيهِ مُنَمْنَمَا

وَهَلْ لَبِسَ الصَّبَاحُ إلاَّ بُرْداً طَرَّزْتُهُ بِفَضَائِلِكَ وَتَقَلَّدت الجَوْزَاءُ إلاَّ عِقْداً فَصَّلْتُهُ بِمَآثِرِكَ وَاسْتَمْلَى الرَّبِيعُ إلاَّ ثَنَاءاً أَمْلأْتُهُ مِنْ مَحَاسِنِكَ وَبَثَّ المِسْكُ إلاَّ

(1) في رواية تضطرم.
(2) في رواية تنقطع.

حَدِيثاً أَذَعْتُهُ فِي مَحامِدِكَ (مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ) وَانْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً وَلَا حَلَّيْتُكَ عُطُلاً وَلَا وَسَمْتُكَ غُفُلاً بَلْ وَجَدْتُ آجُرّاً[1] وَحَصًى فَبَنَيْتُ وَمَكَانَ القَوْلِ ذَاسَعَةٍ فَقُلْتُ وَحَاشَا لَكَ أَنْ أَعُدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ الْمَنْصُوبةِ (تُضيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ) فَلَكَ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ بِي وَبِكَ أَوْلَى.

وَلَعَمْرُكَ مَا جَهِلْتُ أَنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِذَا بَلَغَتْنِي الشَّمْسُ وَنَبَابِي المنزِلُ وَاصْفَحَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرجَالِ فَلَا أَسْتَوْطِىءُ الْعَجْزَ وَلَا أَطْمئِنُّ إِلَى الْغُرُورِ وَمِنَ الأَمْثالِ الْمَضْرُوبَةِ (خامِرِي أمَّ عَامِرٍ) وَانِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ الجَلاءَ سِباءٌ وَالنُّقْلَة مُثْلَةٌ.

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَباً
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ وَإِنْ يُسِيءُ يكُنْ مَا أساءَ النَّارَ فِي رأسِ كَبْكَبَا

عَارِفٌ بأَنَّ الأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يَخْشَى فِرَاقُهُ وَالخَلِيطَ لَا يُتَوَقعُ زِيالُهُ والنَّسِيبَ لَا يُجْفَى وَالجَمَالَ لَا يَخْفَى ثُمَّ مَا قِرانُ السَّعْدِ لِلْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَراً وَلَا أَسْنَى خَطَراً مِنَ اقْتِرَانِ غِنى النَّفْسِ بِهِ وَانْتِظَامِها نَسَقاً مَعَهُ فَإِنَّ الحَائِزَ لَهُما الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا.

(وَقَلِيلٌ ماهُمْ) أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ مَنْهَلَ بِرٍّ وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ وَأَعْطَى حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ

وَقِيلَ لَهُ أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحٌ وَمَقِيلُ

غَيرَ أنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبُ والمَنْشأ مألُوفٌ وَاللَّبِيبَ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ حَنِينَ النَّجِيبِ إِلَى عَطَنِهِ.

وَالْكَرِيمَ لَا يَجْفُو أَرْضاً فِيهَا قَوَابِلُهُ وَلَا يَنْسَى بَلَداً فِيهَا مَرَاضِعُهُ
أَحَبُّ بِلَادِ اللّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ إِلَيَّ وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا

(1) في رواية جصا.

بِـلاَدُ بِهَـا حَـلَّ الشَّبَـابُ تَمَـائِمي   وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُـرَابُهَـا

هَذَا إِلَى مُغَالاَتِي بِعَقْدِ جِوَارِكَ وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمَعَ فِي غَيْرِكَ طَبْعٌ وَالْغِنَا مِنْ سِوَاكَ عَنا وَالْبَدَلَ مِنْكَ أَعْوَر وَالْعِوَضَ لَغَا

وَإِذَا نَـظَرْتُ إِلَى أَمِـيرِي زَادَنِي   ضَـنًّـا بِـهِ نَـظَرِي إِلَى الأُمَـرَاءِ

كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارُ وَاسْتَمْجَدَ المَرْخُ وَالْعَفَار فَمَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلاَّكَ وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لاَ يَمِيلُ عَنْكَ وَهَلاَّ كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ وَرِضَاكَ فِيمَنْ رِضَاهُ لَكَ

يَـا مَنْ يَعِـزُّ عَلَيْنَـا أَنْ نُفَـارِقَهُمْ   وِجْـدَانُنَا كُـلَّ شَيْءٍ بَعْـدَكُمْ عَـدَمُ

أُعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيم خُلَّباً واسْتَمْطِرَ جَهَاماً وَأُكْرِمَ غيرَ مُكْرَمٍ(1) وَأَشْكُو شَكْوَى الجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّخمِ فَمَا أَبْسَسْتُ لَكَ إِلاَّ لِتَدُرَّ وَحَرَّكْتُ الْحُوَارَ إِلاَّ لِتحِنَّ وَنَبَّهْتُكَ إِلاَّ لأَنَامَ وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ إِلاَّ لأَحْمَدَ السرَى لَدَيْكَ وَأَنَّكَ إِنْ سَنَّيْتَ عَقْدَ أَمْرِي تَيَسَّرَ وَمَتَى أَعْذَرْتَ فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ المُرُوءَةِ وَفَضْلَ الجَاهِ تَعُودُ بِهِ صَدَقَةً.

وَإِذَا امْـرُؤٌ أَهْـدَى إِلَيْـكَ صَنِيعَـةً   مِنْ جَـاهِـهِ فَكَـأَنَّهَا مِنْ مَـالِـهِ

لَعَلِّي أُلْقِي الْعَصَا بِذَرَاكَ وَتَسْتَقِرُّ بِيَ النَّوَى فِي ظِلِّك وَأَسْتَأْنِفُ التَّأَدُّبَ بِأَدَبِكَ. وَالإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ فَلاَ أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ وَلاَ أَدَعُ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ وَاللّهُ مُيسِّرُكَ مِنَ طِّلاَبِي بِهَذِهِ الطَّلِبَةِ وَإِشْكَائِي مِنْ هَذِهِ الشَّكْوَى بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ المَصْنَعِ وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدعٍ حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ وَأَنَا مِنكَ حَرِيٌّ بِهِ.

وَلَمَّا تَوَالَتْ غُرَرُ هَذَا النَّثْرِ وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ وَجَرَّ ذَيْلَ

(1) وفي رواية واكدم في غير مكدم.

خَيلَائِهِ عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِياً بَلْ كَايَدَهُ مُدَاهِياً حِينَ أَشْفَقَ مِنْ أَنْ يَعْطِفَك اسْتِعْطَافهُ وَتَمِيلَ بِنَفْسِك أَلْطَافُهُ فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ مِنْهُ وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ وَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ الْعَلِيلَ وَالخَاطِرَ الْكَلِيلَ حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ مِنْهُ عَرُوساً مَجْلُوَّةً فِي أَثْوَابِهَا مَنْصُوصَةً بِحُلِيِّهَا وَمَلَابِهَا

الْهَوَى فِي طُلوعِ تِلْك النُّجُوم ... وَالمنَى فِي هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
سَرَّنَا عَيْشُنا الرَّقِيقُ الحَوَاشِي ... لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى ... زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
إِذْ خِتَامُ الرِّضَا المُسَوَّغُ مِسْكٌ ... وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيم
وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضٌّ جَنَى الصبْـ ... وَةِ نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ النَّعِيم
طَالَمَا نَافَرَ الهَوَى مِنْهُ غِرٌّ ... لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيم
زَارَ مُسْتَخْفِياً وَهَيْهَاتَ أَنْ يَخْـ ... فَى سَنى الْبَدْرِ فِي الظَّلَامِ الْبَهِيم
فَوَشَى الحَلْيُ اذْ مَشَى وَهَفَا الطِّيـ ... بُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّسِيم
أَيُّهَا المُؤْذِنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي ... لَيْسَ يَوْمِي بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ
قَمَرُ الأُفْقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمْـ ... سُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ
وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو ... بِالْمُصَابِ الْعَظِيم نَحْوَ الْعَظِيم
بَوَّأَ اللَّهُ جَهْوَراً أَشْرَفَ السُّو ... دَدِ فِي السَّرْوِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيم
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الأَمْـ ... رَ فَكَانَ الخُصُوصُ وِفْقَ الْعُمُومِ
قَلَّدَ الْغَمْرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعَيْ ... خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ
إِسْوَةُ الرَّوْضِ مَنْ بِطِيبِكَ يَحْظَى ... نَظَرِي مَا اعْتَمَدْتُهُ وَشَمِيمِي
أَيُّهَذا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشكُو ... وَالْعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ
مَا عَنَانَا أَنْ يأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ ... بِطَ مِنْهُ فِي الْعِتْقِ وَالتَّطْهِيمِ
وَثَوَاءُ الحُسَامِ فِي الجَفْنِ يَثْنِي ... مِنْهُ بَعْدَ المَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

أفَصَبرُ مَئِينَ خَمْسٍ مِنَ الأَيَّا م نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيم
وَمُعَنًّى مِنَ الضَّنَا بِهَنَاتٍ نَكَأَتْ يَالْكُلُومِ قَرْحَ الكلُومِ
سَقَمٌ لَا أُعَادُ مِنْهُ وَفِي الْعَا ئِدِ أُنْسٌ يَفِي بِبرْءِ السَّقِيمِ
نَارُ بَغْيٍ سَعَى إِلَى جَنَّةِ الإِنْسِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ
بِأَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْ تَكُ بَرْداً وَسَلَاماً كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ والحَمْدُ في صَوْ بِ الحَيَا لِلرِّيَاحِ لَا لِلْغُيُومِ
وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذِلَّ لِي الصَعْ بَ مَثَابِي إِلَى الهُمَامِ الزَّعِيمِ
وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا عِنِ عن شَوْقِهِ وَلَهْوَ الْمُقِيمِ
وَوِدَادٌ يُغَبِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
فَهُوَ رَيْحَانَةُ الجَلِيسِ وَلَا فَخْ رَ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً عَلَى هَفْوَةِ الجَا نِي مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الْمُلِيمِ
وَمَتَى تَبْدَأ الصَّنِيعَةُ يُولِعُ كَ تَمَامُ الخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ

هَكَها أعَزَّكَ اللّهُ يَبْسُطُها الأَمَلُ وَيَقبِضُها الخَجَلُ لَهَا ذَنبُ التَّقصيرِ وَحُرْمَةُ الإِخلَاصِ فَهَبْ ذَنباً لِحُرْمَةٍ وَاشْفَعْ نِعْمةً بِنِعْمَةٍ لِيَتَأَتَّى لَكَ الإِحْسانُ منْ جِهاتِهِ وَيَسْلُكُ إِلَى الفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ.

— 3 —

فلسفة القصة

ولماذا لا أكتب فيها..؟(*)

بقلم الأستاذ: مصطفى صادق الرافعي:

لم أكتب في القصة إلا قليلاً، إذا أنت أردت الطريقة الكتابية المصطلح على تسميتها بهذا الاسم، ولكني مع ذلك لا أراني وضعت كل كتبي ومقالاتي

(*) وجه إلينا سؤال: لماذا لا تكتب في القصة؟ وكان هذا قبل أن نكتب مقالاتنا في مجلة الرسالة، فرددنا بهذا الرد.

[قلت: وانظر ص ١٨٩ من «حياة الرافعي»].

إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي، وهذا القلب الذي بين جنبي.....

أنا لا أعبأ بالمظاهر والأغراض التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر، والقبلة التي اتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ويزيد في حياتها وسمو غايتها، ويمكِّن لفضائلها وخصائصها في الحياة؛ ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا؛ ثم إنه يخيل إليّ دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا أبداً في موقف الجيش (تحت السلاح): له ما يعانيه وما يكلِّفه وما يحاوله ويفي به، وما يتحاماه ويتحفظ فيه، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها؛ وكيف اعترضت الجيش رأيته فنَّ نفسه، لا فنك أنت ولا فن سواك؛ إذ هو لطريقته وغايته وما يتأدى به للحياة والتاريخ.

ألا ترى أن تلك الروايات توضع قصصاً، ثم تقرأ فتبقى قصصاً؟ وإن هي صنعت شيئاً في قرائها لم تزد على ما تفعل المخدرات؛ تكون مسكنات عصبية إلى حين، ثم تنقلب هي بنفسها بعد قليل إلى مهيجات عصبية؟

وأنا لا أنكر أن في القصة أدباً عالياً، ولكن هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربَّى الأطفال على أسلوب سواءٍ في العلم والفضيلة؛ فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون، وطريقة ممحصة، وغاية معينة؛ ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر الذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تثير الحياة أو تثيرها الحياة؛ والأعلام من فلاسفة البيان الذين رزقوا من أدبهم قوة الترجمة عما بين النفس الإنسانية والحياة، وما بين الحياة وموادها النفسية في هؤلاء وهؤلاء، تتخيل الحياة فتبدع أجمل شعرها، وتتأمل فتخرج أسمى حكمتها، وتشرع فتضع أصح قوانينها.

وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص، فهم في الأدب رعاع وهمج، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز،

هذه الفوضى الممقوتة التي لو حققتها في النفوس لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها.

إذا قرأت الرواية الزائفة أحسست في نفسك بأشياء بدأت تسفل، وإذا قرأت الرواية الصحيحة أدركت من نفسك أشياء بدأت تعلو؛ تنتهي الأولى فيك بأثرها السيء، وتبدأ الثانية منك بأثرها الطيب؛ وهذا عندي هو فرق ما بين فن القصة، وفن التلفيق القصصي!!.

— 4 —

في المقالة[1]

للأستاذ: خليفه محمد التليسي

يقول «العقاد» محدداً المفهوم الذي يلتزمه ويؤمن به في كتابه (المقالة الأدبية):

(والذي نراه نحن في المقالة أنها ينبغي أن تكون مشروع كتاب في موضوعها لمن يتسع وقته للإجمال ولا يتسع للتفصيل، فهي في موضوعها كتاب صغير يشتمل على النواة التي تنبت الشجرة لمن شاء الانتظار)..

ويقول الدكتور «جونسون» في المقالة:

(أنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام وهي قطعة لا تجري على نسق معلوم ولم يتم هضمها في نفس كتابها وليست الأشياء المنظمة من المقالة في شيء)..

والمتتبع لتطور المقالة في الأدب العربي الحديث، يلاحظ بأنها قد التزمت المعنى الأول أكثر من التزامها للمفهوم الثاني. حتى وجدت من الباحثين من يتهمها بالإنحراف والخروج على الحدود الفنية للمقالة كما حددها أعلامها من أمثال الدكتور «جونسون».

---

(1) الجريدة «طرابلس الغرب» 16-6-1960.

وربما استطعنا أن نلاحظ أن هذه المقالة قد تحولت في كثير من الأحيان على يد كبار الكتاب في الشرق إلى نوع من الدراسات والأبحاث وكلمات الوعظ والإرشاد والتوجيه.

ولكننا حين نسجل هذه الظاهرة لا نحب أن نغفل الجانب التاريخي والظروف التي نشأ فيها هذا اللون من المقالة.

إن الظروف الاجتماعية أو التاريخية التي كانت سائدة في مطلع هذا العصر والتي ما تزال تتحكم وتسيطر على الأوضاع الاجتماعية حتى اليوم كان لها أقوى الأثر في تكييف المقالة وصبها في القالب الذي عرف لها عند كبار الكتاب.

كان الشرق في العصر الذي ظهرت فيه المقالة كلون أدبي بارز مقبلاً على يقظة وبعث. فكان من الضروري أن تتجاوب المقالة مع هذه الروح وتتسم بالطابع العلمي والنقدي والدراسي أكثر من اتسامها بالطابع الوجداني الذاتي. وما كانت تلك الظروف لتستسيغ من الكاتب أن يمضي في التعبير عن تجاربه الذاتية، بل كانت تفرض عليه حاجزاً صفيقاً من الوقار، وتفرض عليه نوعاً من احترام الإلتزامات الاجتماعية على نحو يضيق عليه الخناق ويقف دون شخصيته ودون الابداع ويضطره إلى الاتجاه بقلمه إلى معالجة القضايا العامة معالجة علمية موضوعية.

وقد كانت المقالة في مطلع هذا العصر، وقبل طغيان القصة، هي اللون المسيطر على الحياة الأدبية وكانت وسيلة التعبير الرئيسة التي يتصل بها الكاتب بالقارىء. ولذلك يمكن أن يقال أن المقالة بمعناها الفني لم تكن مهيأة للظهور لقد كان الشرق في حاجة إلى التعليم والتوجيه.. فظهرت المقالة التي تتلاءم مع هذا الاتجاه.

وحين انتقل الشرق إلى مرحلة تذوق الفن ظهرت القصة واستغرقت المشاعر وحالت دون تطور المقالة وتحولها إلى الفن الذي يقوم أساساً على التجربة الذاتية التي يمارسها الأديب مقترباً بها كل الاقتراب من البوح

الوجداني والاعتراف الذاتي والتصوير النفسي، مبتعداً بها في نفس الوقت عن الطابع الإنشائي المدرسي الذي تتسم به بعض كتابات المشهورين من كتاب المقالة.

فالمقالة بمفهوم الدكتور جونسون قطعة أدبية ليس لها تبويب ولا نظام ولا مقدمة ولا نتائج ولكنها تمضي على غير نسق فتعبر عن شتى الحالات التي يريد أن يعبر عنها الأديب.

والحقيقة أن الكتابة بهذا المفهوم تحتاج من صاحبها أن يكون فناناً قبل أن يكون عالماً أو ناقداً أو دارس أدب، وكل هذه صفات تميز بها كاتب المقالة في مطلع العصر الحديث.

المقالة بذلك المفهوم تحتاج إلى فنان لا يقيم الحدود ولا يصطنع الوقار الذي يحول بينه وبين النفاذ إلى أعماق القارىء. إلا أن الظروف التاريخية كما أوضحت هي التي تفسر غيبة هذا اللون المتمرد على الوقار وعلى روح التزمت التي كانت وما تزال تعيش في الشرق فتحول بين الإنسان الفنان وبين الإفصاح والتعبير عن عواطفه بحرية كاملة.

ولكي يلتزم الكاتب مفهوم البوح الوجداني والثرثرة الفنية في مقالته ويسير على نهج الأسلوب العادي المألوف في الحديث بين شخصين في واقع الحياة، ينبغي أن يتوفر له في مستوى الكلمة المنشورة ما يتوفر له عند الحديث العادي من أجواء وظروف وملابسات تساعده على إبراز جوهر نفسه ومكنون عواطفه.

والمقالة بهذا المعنى وكما يشرحها الدكتور زكي نجيب محفوظ في كتابه «جنة العبيط» قطعة أدبية أقرب إلى الحديث والسمر منها إلى التعليم والتلقين. وشرط المقالة الأدبية في هذه الحالة أن يكون الأديب ناقماً وأن تكون النقمة خفيفة يشيع فيها لون باهت من الفكاهة الجميلة.

واشتراط النقمة إنما جاء من الافتراض العام بأن الأديب أو الفنان لا بد

أن يختلف مع عصره أو مع نفسه، أو مع العقائد العامة. والكاتب الفنان يستوحي مقالاته في هذه الحالة من الظواهر الاجتماعية العامة وهو ينساق مع الإثارة الفنية التي تقابله في الحياة. وليس مما يتفق مع طبيعة هذا الاتجاه اتسام المقالة بالوعظ والتعليم والإرشاد المباشر. وإنما هي تعبير عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع وقد تحقق هذا المعنى على نحو واضح لكاتب من أنبغ كتاب المقالة الأدبية في الشرق هو المرحوم إبراهيم المازني فلقد كانت مقالاته قطعاً فنية وتعبيراً عن تجارب مارسها في الحياة وانطلق بها من الحيز الضيق إلى أفق إنساني رحيب تميزت فيه بالتعبير الذاتي والفكاهة الساخرة وحديث الصديق المخلص الودود.

ولكن القصة القصيرة قد سلبت من المقالة الفنية هذه المكانة التي كان من الممكن أن تبلغها لو مضت في تطورها المنشود.

وأنا لست من المؤمنين بالقضاء على بعض الألوان الأدبية لحساب اللون الشائع المذكور، ولكننا نستطيع أن نلاحظ في شيء كثير من اليسر انصراف الناشئة عن الاهتمام بهذا اللون، وانشغالهم بالقصة مما يؤكد ضعف الأمل في المقالة الفنية.

فالمقالة الفنية حسب المفهوم الأول الذي يتبناه العقاد مشروع كتاب ومعنى ذلك أنها فكرة من الممكن أن تكون نقطة انطلاق لمن يتسع وقته للتفصيل والشرح والتعليل. ومعنى ذلك أيضاً أن الكاتب الذي يكتبها إنما يخطط كتاباً ويضع الخطوط الرئيسية للكتاب. ولا بد لهذا الطراز من الكتاب الذين يلتزمون هذا المذهب أن يأخذوا أنفسهم بالجهد والثقافة العميقة والاطلاع الواسع والقدرة على التركيز وتعويد النفس على العمل الجاد والطريق الوعر.

ولكن هذا اللون من المقالة لم يجد مكاناً له إلا في المجلات الاكاديمية أما الصحافة اليومية والأسبوعية فلم تعد تقبل عليه، لأن القارىء لم يعد يجد من وقته ما يساعده على أن يشغله بمثل هذه القراءات الثقيلة.

إن المقالة بالمفهوم الأول إدراك واطلاع، وهي في المفهوم الثاني ذات ابداع.

قضى على الأول نفور القارىء من الدراسات الجادة وانصراف الصحافة.

وقضى على الثاني استغراق القصة له وقيامها بنفس الوظيفة.

— 5 —

اليتيم

للشيخ: مصطفى لطفي المنفلوطي

سكن الغرفةَ العُليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، وأحسَب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامي فتى شاحباً نحيلاً منقبضاً جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درساً فلم أكن أحفِل بشيء من أمره، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قَرَّة من ليالي الشتاء فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفتُ عليهِ فإذا هو جالس جِلسته تلك إلى مصباحه وقد أكبّ بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت أنه لِما ألَمَّ بهِ من تعب الدرس وآلام السهر قد عبِثتْ بجفنه سِنة من النوم فأعجَلتْه عن الذَهاب إلى فراشه وسقَطتْ بهِ في مكانه، فما رِمتُ[1] مكاني حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء وإذا صفحة دفتره التي كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها إلى بعض، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيه.

---

(1) رام مكانه زال عنه وفارقه.

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقي فيها عادية البرد بدثار ولا نار، يشكو همًّا من هموم الحياة أو رزءًا من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع[1] الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوْباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخِباء المقوّض، فلم أزل واقفاً في مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه، فانصرفتُ إلى مخدعي وقد مضى الليل إلاّ أقله ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلاّ بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها.

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إمَّا باكياً، أو مطرقاً، أو ضارباً برأسه على صدره، أو منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى، أو هائماً في غرفته يذرع أرضها، ويطوف بأركانها، حتى إذا نال منه الجَهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً، فأتوجع له وأبكى لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أُداخله مداخلة الصديق لصديقهِ وأستبثُّهُ[2] ذات نفسه وأشرَكهُ في همه لولا أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب وأن أهجُم منه على سرّ ربما كان يؤثر الإبقاء عليهِ في صدره وأن يكاتمه الناسَ جميعاً، حتى أشرفت عليهِ ليلة أمس بعد هَدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنهُ خرج لبعض شأنه، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنَّة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مَسمعُها وخيل إليَّ وهي صادرة من قَرارة نفسه كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر

---

(1) الضارع الضعيف النحيف.
(2) استبثه السر طلب إليه أن يبثه إياه.

مبلغ الجِد فلا بدَّ لي من المصير إليهِ، فتقدمتُ إلى خادمي[1] أن يتقدمني بمصباح حتى بلغت منزله ووقفت على باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقفَ على باب قبر يحاول أن يهبط إليهِ ليودع ساكنه الوداع الأخير، ثم دخلت ففتح عينيهِ عندما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً فادهتهُ أن يرى بين يديهِ مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفهُ، فلبث شاخصاً إليَّ هنيهة لا ينطق ولا يَطرِف[2] فاقتربتُ من فراشهِ وجلست بجانبهِ وقلت أنا جارك النازل في هذا المنزل وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمتُ أنك وحدك في هذه الغرفة فعناني أمرك فجئتك علني أستطيع أن أكون عوناً لك على شأنك، فهل أنت مريض؛ فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعتُ يدي حيث أشار فشعَرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنهُ محموم ثم أمْررْت نظري على جسمه فإذا خيال سارٍ لا يكاد يتبينهُ رائيه، وإذا قميص فَضفاض[3] من الجلد يموج فيهِ بدنه موجاً، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى فجرعتهُ منهُ بعضَ قطرات فاستفاق قليلاً ونظر إليَّ نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك، فقلت ما شَكاتك أيها الأخ؛ قال لا أشكو شيئاً، قلت فهل مرَّ بك زمن طويل على حالك هذه؟ قال لا أعلم، قلت أنت في حاجة إلى الطبيب فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك؟. فتنهد طويلاً ونظر إليَّ نظرة دامعة وقال: إنما يبكي على الطبيب من يؤثر الحياة على الموت: ثم أغمض عينيهِ وعاد إلى ذهوله واستغراقه، فلم أجد بدًّا من دعاء الطبيب رضى ذلك أم أبى فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو من حيث يعلم أني أسمع شكواه إزعاجَه من مرقده وتجشيمَه خوضَ الأزقة المظلمة في الليالي الباردة فلم أحفِل بأمره لأني

(1) تقدم إلى فلان بكذا أمره به.
(2) طرف فلان بصره أطبق أحد جفنيه على الآخر.
(3) الفضفاض الواسع.

أعلم طريق الاعتذار إليهِ، فجس المريض وهمس في أذني قائلاً: أن عليلك يا سيدي مشرف على الخطر ولا أحسَب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم، وجلس ناحيةً يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمّالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرت إليه الاعتذار الذي يريده فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال أنت هنا؟ قلت نعم، أرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل، قال أرجو أن أكون كذلك، قلت هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت، وما مُقامك وحدك في هذا المكان، وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت من أهليه، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همًّا باطناً؟ قال أشكوهُما معاً، قلت فهل لك أن تحدثني بشأنك وتُفضي إليَّ بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه فقد أصبحت مَعنيًّا بأمرك عنايَتك بنفسك؟ قال هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة وبتنفيذ وصيتي إن كانت الأخرى؟ قلت نعم، قال قد وثقت بوعدك فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك لا يكون كذاباً ولا خائناً.

أنا فلان بن فلان مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً فكفَلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم براً وإحساناً، وأكثرهم عطفاً وحناناً، فأنزلني من نَفسه منزلةً لم ينزلها أحد من قبلي غير ابنته الصغيرة وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً، وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعد ما تمنى ذلك على الله زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته فعُني بي عنايَته بها وأرسلنا إلى المدرسة في يوم واحد، فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبًّا شديداً ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت

لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبويّ من حين إلى حين، فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبَيْن إلى المدرسة أو عائدَين منها أو لاعبَيْن في فِناء المنزل أو هائِمين في حديقته أو مجتمعَيْن في غرفة المطالعة أو متحدثَيْن في غرفة النوم حتى جاء يوم حجابها فلزمتّ منزلها واستمررْت في دراستي.

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحلُه إلا ريب المنون، فكنت لا أرى لذة العيش إلاَّ بجوارهـا، ولا أرى نور السعـادة إلاَّ في فجـر ابتساماتها، ولا أُوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميعَ لذات العيش ومسرَّات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خَصلة من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء الاَّ وجدتها فيها.

وإني أستطيع وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا أيام طفولتنا معاً فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا، ومسرح أمانينا وأحلامنا، كـأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائها، ولمعان حصبائها، وأفانين أشجارها، وألوان أزهارها، وتلك المقاعد الحجرية التي كنا نتخذها منها فنجتمع فوقها على حديث نتجاذبهُ أو طاقة نؤلف بين أزهارها، أو كتاب نقرأه معاً، أو رسم نشترك في النظر فيهِ، وتلك الخمائل الخضراء التي كنا نفيء إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر بهِ أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أُمهاتها، وتلك الحفائر الجوفاء التي كنا نحتفرها بأيدينا على شواطىء الجداول والغُدران فنملؤها ماءً ثم نجلس حـولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيءٍ منها كأننا ظفرنا بغُنم عظيم، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيهـا عصافيرنا ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظَرها ومنظَر مناقيرها

الخضراء وهي تحسو الماء مرَّة وتلتقط الحب أخرى، ونناديها بأسمائها التي سميناها بها. فإذا سمعنا صفيرها ظننا أنها تلبي نداءنا.

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي وداً وإخاء. أو حبًّا وغراماً، ولكنني أعلم أنه إن كان حبًّا فقد كان بلا أمل ولا رجاء، فما قلت لها يوماً أنني أحبها لأني كنت أضن بها وهي ابنة عمي ورفيقة صباي أن أكون أوَّل فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها، ولا قدَّرتُ في نفسي يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتي بأسباب حياتها لأني كنت أعلم أن أبويها لايَسْخُوَان بمثلها على فتى بائس فقير مثلي، ولا حاولتُ في ساعة من الساعات أن أتسقط[1] منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقّطون. لأني كنت أُجلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك، ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيئةَ نفسها لأعلم أيَّ المنزلتين أُنزلها من قلبها، منزلة الأخ فأقنع منها بذلك. أو منزلة الحبيب، فأستعينَ بإرادتها على إرادة أبويها، بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل لصورة العذراء الماثلة بين يديهِ في صومعته يعبدها ولا يدنو منها.

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمّي نازلةٌ من المرض القاتل لم تَنْشَب[2] أن ذهبتْ بهِ إلى جوار ربهِ، وكان آخر ما نطق بهِ في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته وكان يحسن بها ظنًا «لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني له أُمًّا كما كنت له أباً وأوصيك أن لا يَفقدَ مني بعد موتي إلاّ شخصي» فما هو إلا أن مرَّت أيام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير النظرات وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فتداخلني الهمّ واليأس ووقع في نفسي للمرَّة الأولى في حياتي أنني

---

(1) تسقط فلان الخبر أخذه شيئاً بعد شيء.
(2) لم تنشب لم تلبث.

قد أصبحت في هذا المنزل غريباً، وفي هذا العالم يتيماً.

فإني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلَتْ نحوي الخادم وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمتْ نحوي باكية منكسرة وقالت: قد أمرتني سيدتي زوجة عمك أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب، وإنها ترى أن في بقائك بجانبها بعد موت أبيها ما يَريبها عند خطيبها، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكناً هذا الجناحَ الذي تسكنه من القصر، فهي ترى لك أن تتحوّل إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها تقوم لك هي بشأنه وشأن نفقاتك فيه.

فكأنما عَمِدَت إلى سهم مَريش فأصابت بهِ كبدي إلاّ أنني تماسكت قليلاً ريثما قلت لها سأفعل ذلك إن شاء الله. فانصرفتْ لشأنها فخلوت بنفسي ساعة من الزمان أطلقت فيها السبيل لعبرتي ما شاء الله أن أُطلقها حتى جاء الليل فعمِدت إلى حقيبتي فأودعتُها ثيابي وكتبي وقلت.

«قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله وقد حيل بيني وبينهُ فلا آسف على شيء بعده».

ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بمكاني ولم أتزود منها قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من وراء كِلّتها[1] وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها . . . .

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى   لو أنا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزناً إن رحتُ لم أستطع لها   وداعاً ولم أُحدث بساكنها عهدا

* * *

(1) الكلة الستر الرقيق.

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه برهة من الزمان فراق آدم جنتَه وخرجت منهُ شريداً طريداً حائراً ملتاعاً قد اصطلحت عليَّ مختلفات الهموم والأحزان. فراقٌ لا لقاء بعده. وفقرٌ لا سادّ لخَلته. وغربةٌ لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ولا معيناً.

وكانت معي صُبابة[1] من مال قد بقيتْ في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة في هذا السطح مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاجَ نفسي من همومها وأحزانها، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط ببلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ولا تطلُع عليّ الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره حتى شعرَت في آخر الأمر بسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يَفيض ولا يَغيض.

فقنِعت بذلك وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم مجتمعاً كمنفرد وحاضراً كغائب وقريباً كبعيد وأن ألهوَ بشأن نفسي عن كل شأنٍ سواه وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب آثاره ومظاهره فلزمت غرفتي ومدرستي لا أترك إحداهما إلا إلى الأخرى ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفنيّ في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما في فأجد برد الراحة في صدري.

لبثتُ على ذلك برهة طويلة حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبةٌ أو موشكةٌ. وكنتُ مأخوذاً بأن أهيىء لنفسي عيشاً مستقبلاً وأن أؤدي للمدرسة قسطاً من أقساطها والمدرسة

(1) الصبابة البقية من الشيء.

في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلع نسيئةً. والعلم في هذا الأمة مرتزَقٌ يرتزق منهُ العلماء. لا منحةٌ يَمنحها المحسنون. فأهمَّتني نفسي وعلمت أني مشرف على الخطر ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة فعمِدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى له عنه وحملت سائرها[1] فذهبت به إلى سوق الوراقين فعرضتهُ هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى.

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فِنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينته فإذا هي الخادم التي كانت تخدُمني في منزل عمي فقلت فلانة؟ قالت نعم، قلت ماذا تريدين؟ قالت لي إليك كلمة فائذن لي بها، فصعدت بها إلى غرفتي فلما خلونا قلت هات، قالت مرت بي ثلاثة أيام أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك، ثم انفجرتْ بَاكيةً بصوت عال فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس فقلت ما بكاؤك؟ قالت أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك؟ قلت لا فما أخباره؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه[2] كتاباً مقفلاً فتناولته منها ففضضت غلافه فإذا هو بخط ابنة عمي فقرأْت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة «إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك، أما اليوم وقد أصبحتُ على باب القبر فلا أغتفر لك أن لا تأتي إليّ لتودعني الوداع الأخير».

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت البابَ مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبي وقالت أين تريد يا سيدي؟ قلت إنها مريضة ولا بد لي من المصير إليها،

---

(1) سائر الشيء باقيه.
(2) اضعاف الثوب أثناؤه.

لحظة ثم قالت بصوت خافت مختنق لا تفعل يا سيدي فقد سبقك عليها.

هنالك شعَرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً دارت بي الأرض الفضاء دورةً سقطتُ على أثرها في مكاني لا أشعر شيء مما حولي فلم أُفق إلاَّ بعد حين ففتحت عيني فإذا الليل قد أظلني وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت: أيتها المرأة أحقٌّ ما تقولين؟ قالت نعم، قلت قصّي عليّ كل شيء فقالت:

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد فراقك فقد سألتْني في اليوم الذي رحلتَ فيهِ عن سبب رحيلك فحدثتُها حديث الرسالة التي كنت حملتُها إليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها «وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئاً» ثم لم يجرِ ذكرك على لسانها بعد ذلك بخير ولا شرّ كأنما كانت تعالج في نفسها ألماً مُمضًا، وما هي إلاَّ أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطتْ على فراشها مريضة لا تُبِلّ[1] يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أُمُّها أمرُها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلاَّ فزعتْ إليهِ في أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً.

فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعَرتُ بها تتحرك في مضجَعها فدنوت منها فأشارت إليّ أن آخذ بيدها ففعلتُ فاستوتْ جالسة وقالت: في أي ساعة نحن من ساعات الليل؟ قلت في الهزيع الأخير

(1) أبل من مرضه برئ منه.

قالت أأنت وحدك هنا؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً، قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن؟ فعجبتُ لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى يا سيدتي أعلم مكانهُ، وما كنت أعلم شيئاً ولكنني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها، فقالت ألا تستطيعين أن تحملي إليهِ كتاباً مني من حيث لا يعلم أحد بشأني؟ قلت لا أحبَّ إليَّ من ذلك يا سيدتي، فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها فكتبتْ إليك هذا الكتاب الذي تراه، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحين بكل سبيل علني أراك فلم أعرف الطريق إليك، حتى انحدرت الشمس إلى مغربها فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغتُهُ حتى سمعت الناعيةَ فعلمتُ أن السهم قد أصاب المقتل وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاءً قد سقطت اليوم آخر ورقة من ورقاتها، فحزنت عليها حزن الثاكل على ولدها وما رئى مثلَ يومها يومٌ كان أكثر باكية وباكياً.

وكان أكبر ما أهمني من أمرها أنَّ كل ما كانت ترجوه في آخر يوم من أيام حياتها أن تراك ففاتها ذلك وسقطتْ دون أُمنيتها، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك.

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت. فما انفردت بنفسي حتى شعَرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عينيّ شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظري كل شيء ثم لا يعلم ماذا تمّ لي بعد ذلك حتى رأيتك.

* * *

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفَر زفرة خلتُ أن كبده قد

ارفضّت[1] وأن هذه أفلاذها، فدنوت منه وقلت ما بك يا سيدي؟ قال بي أني أطلب دمعة واحدة أتفرّج بها مما أنا فيه فلا أجدها.

ثم سكت ساعة طويلة فشعَرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليهِ فإذا هو يقول:

«اللهمَّ أنك تعلم أني غريب في هذه الدار لا سند لي فيها ولا عضد، وأني فقير لا أملك من متاع الدنيا ما أعود بهِ على نفسي، وأني عاجز مستضعَف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق في هذه الحياة بوجه ولا حيلة، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبقَ فيهِ حتى الذّماء[2].

وأني أستحييك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتَها بيدك بين جنبيَّ فأنتزِعَها من مكانها وأُلقي بها في وجهك ساخطاً ناقماً، فأمدد أنت يدك إليها واستردّ وديعتك إليك وانقلها إلى دار كرامتك فنعم الدار دارك، ونعم الجوار جوارك».

ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت: أشعر برأسي يحترق احتراقاً وبقلبي يذوب ذوباً ولا أحسبني باقياً على هذا، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله فيَّ قضاءه؟ قلت نعم وأسأل الله لك السلامة، قال الآن أموت طيب النفس عن كل شيء.

ثم انتفض انتفاضة خرجت نفسهُ فيها وهو يقول: (أحسنت إليَّ حيا فأحسنْ إليَّ ميتاً).

* * *

---

(1) أرفض الشيء تفرق وترشش.
(2) الذماء بقية النفس.

لقد هوَّن وجدي على هذا البائس المسكين أني استطعت تنفيذ وصيته فدفنته حيث أراد ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته ابنة عمه فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءَها حيًّا، فلباها ميتاً.

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر، فوسعهما بعد موتهما فضاء القبر.

— 6 —

مقطع من: -
رواية رفقة السلاح والقمر

للروائي المغربي مبارك ربيع

صفاء صيفي والنهار جاوز منتصفه.. شوارع المدينة تهتز بالزينة.. قلبك الصغير يا مدينة الرباط يضطرب خافتاً بالاعلام والألوان، وما أسرع ما يطفح انفعالاً وتأثيراً ويضيق بالخلائق المكدسة على الأرصفة وفوق السطوح.

استطال ظل صومعة جامع السنة إلى الشرق، وعلى بابه الغربي المتفتح في أعلى نقطة على الشريان الفسيح نحو قلب المدينة، وقف الشيخ الحاج ميمون الركراكي، على أولى الدرجات الصخرية المنحوتة متكئاً على ركن الباب المزخرف بالنقوش في شبه ظل تصنعه زاوية حافة قوس بشكل حدوة الفرس. هكذا على مبعدة عشرات أمتار من زحام الخلائق بل من بداية الزحام، وعلى متكأ من ركن الإيمان العتيد تجد العظام الواهنة سكينتها وتتطلع العينان الكليلتان تحت الحاجبين الكثين الاشيبين نحو اللحظة المشهودة المنتظرة.. بنيتي، ليعمر قلبك الكبير حب الله الأكبر يا آمنة.

قلبك الصغير يا مدينة الرباط ما زال يكتظ ويضيق بالخلائق وينفجر بين

الحين والآخر في موجات هتاف تنفيساً وانتظاراً.. روّحى، وسعى من صدرك يا ذات القلب الصغير بالهتاف ليتسع للمزيد من ضغط الخلائق المتقاطرة..

على أعلى درجة من باب الجامع يمكن للعين المتطلعة أن ترى بالكامل، ومواجهة، أيما شخص أو مشهد يظهر في عرض الطريق ابتداء من أقواس باب الرواح إلى بضعة أمتار قرب الجامع قبل أن تتقلص المسافة جداً، فتحجبه الجماهير المتراصة على الجانبين، ولكنه كفيل بأن يظهر بعد ذلك من جديد للعين المتطلعة عندما يبلغ أعلى نقطة في طريق انحداره منحرفاً نحو قلب المدينة في رؤية جزئية ومن الخلف، ولفترة أقصر.

تموجات الهتاف دورة حياة تسري في الشريان الفسيح المتموج طرداً وعكساً من باب الرواح، وخلفه في شارع النصر لتنحدر نحو القلب، فينبض بها نبضاً قوياً ويهتز لها لحظة عندما تتركز فيه كأنه يشرق بها أو يكاد يغص، قبل أن يدفعها إلى الطرف الآخر في منعرجات أخرى للشريان.. لتغيب في الأطراف وتهمد، ثم تعود الدورة عكساً من الأطراف لتتركز في القلب من جديد مصعدة نحو القمة للتناهى متباعدة وراء الأقواس في شارع النصر. آمنة، نفسي يابنية نفسي، وسعى قلبك يا ذات القلب المؤمن الكبير. الكبير بحوله وقدرته.

هاى.. هاى.. الأطراف تهتز، الشريان العظيم يهتز والقلب، الكيان كله.. كله.. عشت يا ذات القلب الكبير. عشت وهتافات النصر، رعود التصفيقات تلتحم لها السماء بالأرض.. يومك المشهود يا ذات القلب الكبير يومك.. هاى.. هاى.. يا عز الشام يا عز العرب يا نصر الله للمظلوم.. بشائر الشام أطلت قامات رجال فارعة وجباه خير، وسواعد الرجال أقدام الرجال تركض في حزم.. عشتم يا فلذات الشام يا عز الشام.. ذات القلب الصغير الكبير لكم يا أوفياء.. بركاتكم. بركاتك يابو على يابو محمد خليل.. بركاتك يا سامية أبو عزيز.. بركاتكم يا أبنائي لاخوتكم الأوفياء.. بركاتك

يا سلاَم، يا سلام، يا سـ..لا..م يا ابني بركاتـك لآمنة ذات القلب الكبير..

يخف ركض الفرقة العسكرية السورية في سمع الحاج ميمون، لكنه يراها من الخلف في انعطافها نحو مركز المدينة، خوذات جنودها أولاً تعلو وتنخفض على إيقاع ركضها الحازم، ثم الأكتاف بتمويهات لباس الميدان، تسايرها تموجات هتافات النصر، والتصفيق والاعلام، عائدون من نصر، عائدن إلى نصر بإذن الله.. يا جباه الخير يا أوفياء، ذات القلب الكبير لكم.. يا صلات الرحم دامت الصلات..

موجات الهتاف تتناهى بعيدة من الأطراف النائية وراء قلب مدينة يتواهى اهتزازه كأنه يوشك أن يمهد.. لكن الشعلة لا تنطفىء، هي ذي الأطراف العليا تنبض وتهتز من جديد واعلام التجريدة المغربية العائدة تلوح وراء الأقواس، تحت الأقواس وأمامها.. الله الله يا وجوه بررة حجاج، من نصر إلى نصر بإذن الله. خطوات العزم والتصميم وشمم الأطلس الشامخ، أسلحة الحق مشرعة.. حماة العروبة حماة الإسلام حماة الحق، المجد لكم.. دماؤكم في الشام في سيناء مدادكم للوحدة والإيمان.. أبا المخاطر يابو على مفزع الموت بركاتك لاخوتك، بركاتك يابو محمد الولد والوالد.. من نصر إلى نصر.. يا عيسى الرايح يا أوباها يا سامية بركاتكم يا أبنائي لاخوتكم الأوفياء صلات الرحم. بركاتكم لذات القلب الكبير وبركاتك يا سلام، يا سـ..لا..م.. بركاتك لاخوتك، لآمنة والأولاد.

أسماء تلتحم بالأرض من جديد في هتاف ودعاء ورعد الحماس.. الكون كله رعشة عناق وتحية واعتزاز.. من نصر إلى نصر..

السماء تلتحم بالأرض في عناق التحايا على البعد والقرب وهتـاف الترحاب..

السلحفاة والبطتان

لعبد الله بن المقفع

قَالَتِ ٱلأُنْثَى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيراً كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ وَكَانَ فِيهِ بَطَّتَانِ، وَكَانَ فِي ٱلْغَدِيرِ سُلْحَفَاةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْبَطَّتَيْنِ مَوَدَّةٌ وَصَدَاقَةٌ. فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذَلِكَ ٱلْمَاءُ، فَجَاءَتِ ٱلْبَطَّتَانِ لِوَدَاعِ ٱلسُّلَحْفَاةِ وَقَالَتَا: ٱلسَّلاَمُ عَلَيْكِ فَإِنَّنَا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هَذَا ٱلْمَكَان لِأَجْلِ نُقْصَانِ ٱلْمَاءِ عَنْهُ. فَقَالَتْ: إِنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ ٱلْمَاءِ عَلَى مِثْلِي ٱلَّتِي كَأَنِّي ٱلسَّفِينَةُ لاَ أَقْدِرُ عَلَى ٱلْعَيْشِ إِلاَّ بِالْمَاءِ، فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِرَانِ عَلَى ٱلْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا، فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمَا. قَالَتَا: نَعَمْ. قَالَتْ: كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَى حَمْلِي؟ قَالَتَا: نَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عُودٍ وَتَقْبِضِينَ بِفِيكِ عَلَى وَسَطِهِ وَنَطِيرُ بِكِ فِي ٱلْجَوِّ. وَإِيَّاكِ إِذَا سَمِعْتِ ٱلنَّاسْ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي. ثُمَّ أَخَذَتَاهَا فَطَارَتَا بِهَا فِي ٱلْجَوِّ. فَقَالَ ٱلنَّاسُ: عَجَبٌ سُلَحْفَاةٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ قَدْ حَمَلَتَاهَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ: فَقَأَ ٱللّهُ أَعْيُنَكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ. فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاهَا بِالنُّطْقِ وقعت على الأرض فماتت.

الخاتمة

وبعد.. فهذه نظرات عجلى وأُمليات مقتضبة، كان معظمها دروساً نظرية أُلقيت على طلاب جامعة الفاتح وكلية الدعوة الإسلامية في مادتي البحث العلمي وقاعة البحث، وقد كمَّلَتْها دروس عملية داخل المكتبة، وأوراق عمل، وبحوث تطبيقية مصاحبة، عمل فيها الطلاب بجهودٍ متفاوتة، تفاوت قدراتهم واستعداداتهم، مستفيدين من كل خطوة من خطوات الجانب النظري.

وقد تكون الفائدة من دراسة هذه الورقات محدودة إذا لم يصاحبها جانب تطبيقي عملي، ولكنها ستكون أكثر محدودية لمعظم الطلاب إذا لم يتولها أستاذ متخصص ومتحمس، فيبسط مجملها، ويمثل لعمومياتها، ويكمل ما فيها من نقص أو تقصير، فالكمال لله وحده.

والله ولي التوفيق

فهرس المحتويات